عبد الحميد كشك

عالم الجن والشياطين



للطبع والنشر والتوزيع
١٦ شارع كامل صدقى بالفجالة
القاهرة ت ٩١١٣٧١

بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمدا رسول الله بلغ رسالة ربه ، وأدى الأمانة كاملة وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، صلوات ربى وسلامه عليك يا رسول الله ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم ..

أما بعد فمن الأمور التى يجب الإيمان بها لأنها معلومة بالضرورة وإنكارها كفر، من هذه الأمور الإيمان بعالم الجن فقد جاء ذلك صريحاً فى القرآن الكريم كما جاء النص به صحيحاً فى السنة المطهرة فالقرآن والحديث تحدثا بصراحة عن هذا العالم وفى ذلك جاءت سورة كاملة سماها القرآن بسورة (الجن).. قال الله تعالى فى افتتاحها: **"قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً"** .. وفى هذا الكتاب دار حديثنا حول هذه القضية بما لها وما عليها ولقد سلطنا الأضواء الإسلامية على مكايد الشيطان لابن آدم ثم وجهنا الأضواء الكاشفة على الدواء من هذه الأدواء حتى نكون قد شخصنا الداء ووصفنا الدواء. وذلك بما تيسر من التقدير، وتقدر من التيسير، فما أكثر ما يغوى الشيطان عباد الله وما أشد حاجة العباد إلى أن يعرفوا الطريق إلى الله: **"فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال**

كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى".. وما أجل قول الله تعالى: "**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**".. وما أعظم قوله تبارك اسمه: "**ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وان اعبدونى هذا صراط مستقيم**". فاللهم انا نسألك السلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والعصمة من كل ذنب فأنت المستعان وعليك التكلان .

المؤلف

فضيلة الشيخ كشك

أدلة وجود الجان والشيطان

إن الأخبار الإلهية ، والأحاديث النبوية ، والناطقة بوجود الجن والشياطين لكثيرة جداً ، فلنكتف بذكر طائفة منها ، ولنبدأ بأخبار الله تعالى :

قال تعالى فى خلق الإنسان والجان :

"خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار" .

وقوله فى بيان العلة فى خلقه للإنس والجن :

"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين" . .

وقوله تعالى فى الإخبار عن طاعة ملائكته له ، وفسق إبليس عن أمره ، وفى النهى عن اتخاذ إبليس وذريته أولياء :

"وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً" .

وقوله فى الإخبار بأن شياطين الجن والإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

"شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا" .

وقوله تعالى فى الإخبار بما امتن به على عبده ورسوله سليمان عليه السلام وتسخير الجن والشياطين له ، حيث كان يستخدمهم عليه السلام فى شتى الأعمال والأغراض .

"ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات" .

وفى آية أخرى يقول الحق تبارك وتعالى :

"والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب" .

وقوله تعالى فى الإخبار عن الجن الذين حضروا صلاة الصبح مع الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف رجعوا إلى قومهم يدعونهم الى الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم .. قال تعالى: *"وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ،ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين"* .

أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ..

وهى كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم فى الإخبار عن القرين من الجن ، والذى وكل بكل إنسان :

ـ «ما من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا: وإياك يا رسول الله قال: وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير».. (رواه مسلم).

ـ وقوله صلى الله عليه وسلم: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من نار، وخلق آدم مما وصف لكم" (رواه مسلم).

ـ وقوله صلى الله عليه وسلم عن دخول الشيطان مع الإنسان بيته وتناوله من طعامه وشرابه وذلك فى رواية مسلم: «إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان ـ أى لأولاده ومن معه من الشياطين ـ

أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء».

وقوله صلى الله عليه وسلم فى النهى عن الأكل والشرب بالشمال والتعليل بأكل الشيطان وشربه بشماله: «لا يأكلن أحدكم بشماله ولا يشربن بها فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بها» (رواه مسلم).

وقوله صلى الله عليه وسلم لما سأله الجن الزاد فى الحديث الصحيح : «كل عظم ذكر اسم الله عليه وقع فى يد أحدهم أوفر ما يكون لحماً وكل بعر علف لدوابهم»..

وجوب الإيمان بوجود الجن والشياطين

لتلك الأدلة النقلية من الكتاب والسنة، التى سقناها كان الإيمان بوجود الجن والشياطين واجباً حتماً، بل كان جزءاً من عقيدة المؤمن لا يتجزأ وكل محاولة لإخلاء العقيدة الإسلامية من التصديق بوجود عالمى الجن والشياطين تعد كفراً صراحاً، مخرجاً من الملة لتكذيب الله تعالى فى إخباره، ولتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم. وكفى بتكذيب الله تعالى، وتكذيب رسوله كفراً وباطلاً.

بعض معلومات عامة عن الجن والشياطين

---

(١) مادة خلق الجن :

الجان هو أبو سائر الجن ، وهو مخلوق من مادة النار المعروفة وكان خلقه قبل خلق الإنسان وذلك لقوله تعالى :

"ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حماء مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم" .

وهل السنة فى خلق الجان وذريته كالسنة فى خلق آدم وذريته؟ بمعنى أن الجان الأول خلق من نار وأولاده خلقوا بطريقة أخرى كالتناسل .. هذا محتمل

والله أعلـم.

(٢) لِمَ سُمى الجـن جناً ؟

أصل المعنى اللغوى لمادة «الجن» هو ستر الشيء عن الحاسة ولذلك ذكر ابن فارس فى «معجم مقاييس اللغة» أن هذه المادة أصلها الستر والتستر، وكأن الجن سموا بذلك لأنهم عالم مستتر لا يراه البشر.. والجن جماعة الجن، والجان هو الواحد منهم.

قال تعالى فى الشيطان من الجن: *"إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم"*.

(٣) افتقار الجن إلى الغذاء :

إن الجن مفتقرون إلى الغذاء المناسب لذواتهم كافتقار سائر الحيوانات والنباتات لأغذيتها المناسبة لها، والدليل على هذه الحقيقة :

ما صح من أن الجن سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الزاد فقال لهم: «كل عظم يذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحماً». ونهى صلى الله عليه وسلم عن الاستجمار بالعظم وقال: «إنه طعام إخواننا من الجن».. كما نهى عن الأكل بالشمال والشرب بها وعلل ذلك بأن الشيطان يأكل ويشرب بشماله.

فثبت بهذه الأحاديث الصحيحة المخرجة فى البخارى ومسلم أن الجن والشياطين يأكلون ويشربون، وذلك لأجل التغذية اللازمة لهم حسب ذواتهم والطبيعة التى خلقهم الله تعالى عليها .

(٤) الجن يتوالـدون :

لا شك ان الجن والشياطين تتم بينهم عملية التوالد بحسب طبيعة خلقهم وتكوينهم، وأن لهم سنة فى ذلك يتم بحسبها وجود ذرية لهم، كما تتوالد سائر الأحياء، كل على نظام السنة التى جعلها الله تعالى له. ويشهد لهذه الحقيقة

ويقررها القرآن الكريم.. حيث جاء فيه قول الله تعالى:

"أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا" .

(٥) هل بين الجن والشيطان فرق ؟

نعم إن بين الجن والشيطان فرقاً كبيراً، ولكى تتجلى هذه الحقيقة واضحة نذكر ان الخلق الراقى أربعة أنواع وهى: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين.

فالملائكة : عالم روحانى مستقل له خصائصه ، وصفاته ، وأحواله.

والجن .. نوعان، شياطين لا خير فيهم البتة، وجن منهم الصالح ومنهم الفاسد، فحالهم كحال الناس، منهم البار ومنهم الفاجر، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، بيد أن الشياطين أصلهم من الجن، وذلك لأن إبليس كان من الجن لإخبار القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى:

"إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه" .

ولما أبلس الشيطان، وطرد من الرحمة الإلهية، وانقطع من الخير كلية، كانت ذريته مثله بحكم الوراثة، لا خير فيهم أصلاً، فلا يعرفون إلا الشر، ولا يدعون إلا إليه، والمثل القريب لذلك أن الحية لا تلد إلا الحية، فلم يطرأ ولن يطرأ على نسلها منذ أن كانت تغيير بحيث تلد أولاداً، لا سم فيهم، ولا خبث معهم.

ثم إن كل من يخبث، ويتمرد ، وينقطع عن الخير من أفراد الجان والإنس يصبح شيطاناً، فإن عتا قيل فيه مارد ، وإن زاد عتوه وطغيانه قيل فيه عفريت.

وقد أثبت القرآن الكريم هذه الحقائق كلها ، إذ جاء فيه ان من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين، قال تعالى فى سورة الأنعام:

"شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا" .

كما جاء فيه أن من الجن صالحين وذلك فى قوله تعالى فيما حكاه عن الجن

من سورة الجن: *"وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا"* .

وفى قوله تعالى: *"وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون"* .

كما أخبر تعالى أنه خلق الجن كالإنس لعبادته وطاعته فى قوله جل جلاله: *"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين"* .

(٦) هل الجن والشياطين يتشكلون ؟

لا شك فى أن الجن كالشياطين يتشكلون بأشكال مختلفة، ويتلونون تلوناً كبيراً، وهذا مما دل عليه السمع والمشاهدة وهو من الممكنات الجائزة عقلاً، إذ تصور وجودها لا يوجب تناقضاً عقلياً أبداً.

ومن الأخبار الدالة على تشكل الجان بأشكال متعددة ما يلى:

(١) مجيء الشيطان إبليس إلى دار الندوة فى مكة ورجال قريش مجتمعون فيها للتشاور فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم، ودعوته الإسلامية التى أظهرها فيهم، فتحيروا لها، وعظم عندهم أمرها، فاجتمعوا يبحثون عن تخريج لهم منها، ولو كان قتل النبى صلى الله عليه وسلم، أو حبسه، أو نفيه، فهم كذلك حتى دخل عليهم الشيطان فى صورة رجل كبير محترم من رجالات «نجد» ومشايخها الموقرين، وشارك فى اجتماعهم، ومداولاتهم، ورجح لهم اقتراحاً حاز أغلبية الأصوات وهو أسوأ اقتراح تقدم به إنسان وأقبحه وأكثره شراً وفساداً، ألا وهو الحكم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم..

فهذه الحادثة متواترة لا مجال للشك فيها فضلاً عن إنكارها وجحودها.

(٢) تشكل شيطان فى صورة إنسان، وسرقته من تمر الصدقة كما جاء فى حديث أبى هريرة عند البخارى، اذ فيه ما معناه أن أباهريرة جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراسة تمر الصدقة «الزكاة» فكان الجان يأتيه فى

صورة انسان ويأخذ من تمر الزكاة، فقبضه، وأراد أن يوقع به فاعتذر اللعين فتركه، ثم أتى للمرة الثانية وعندما عزم أبوهريرة على أن يذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أن الشيطان اعتذر كذلك بأن له عيالاً، وأنه مضطر، وطلب من أبى هريرة أن يعفو عنه، على أن يعلمه آية من كتاب الله تعالى من قرأها فإن الشيطان لا يقربه. وهذه الآية هى آية الكرسى.. فعفا عنه وتركه . ولما لاقى أبوهريرة رسول الله بادره النبى صلى الله عليه وسلم قائلاً: ما فعل أسيرك البارحة؟ فقال له أبوهريرة كان من أمره كذا وكذا.. فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: «صدق وهو كذوب»!!

تنبيـــه :

على إثر تقريرنا أن الجن والشياطين يتشكلون، كما تتشكل الملائكة ننبه إلى أنه لم يثبت لدينا خبر صحيح عن كيفية تشكل الملائكة والجان، والشياطين، غير أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى قد علمهم أسماء يدعونه بها، أو كلمات يقولونها فيتم لهم ذلك التشكل على الصورة التى يريدون، فى حدود ما أذن لهم فيه بدليل أن الشيطان لا يقدر على التمثل بصورة الرسول صلى الله عليه وسلم : «من رآنى فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بى».. والحديث (متفق عليه).

(٧) أين يسكن الجان ؟

الغالب فى الجن والشياطين أنهم يسكنون الخرائب والحشوش والمزابل، والقمائم لحديث أبى داود: «إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبُث والخبائث».

ومن هنا كانت الشياطين تنزل على أخباث الرجال والنساء من أهل الآثام والأفاكين، الملوثين بالذنوب، والجرائم العظام. قال تعالى: "*هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون*" .

(٨) الجن أقل قدراً وأدنى كرامة من الإنسان ..

إن الجن حتى الصالحين منهم لأقل قدراً، وأدنى كرامة وأنقص شرفاً من الإنسان، إذ قرر الخالق عز وجل كرامة الإنسان وأثبتها فى قوله من سورة الإسراء:

"*ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً*".

ولم يثبت مثل هذا التكريم للجان لا فى كتاب من كتب الله ، ولا على لسان رسول من رسله عليهم السلام، فتبين بذلك أن الإنسان أشرف من الجان، ويدل على ذلك أيضاً شعور الجن أنفسهم بنقصانهم وضعفهم أمام الإنس، يدل على ذلك انهم كانوا إذا استعاذ الإنس بهم تعاظموا وترفعوا لما فى استعاذة الإنسان بهم من تعظيمهم، وإكبارهم وهم ليسوا كذلك فيزدادون رهقاً، أى طغياناً وكفراً .

قال الله تعالى فى الحديث عنهم من سورة الجن: "*وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً*".

(٩) هل صالحو الجن يدخلون الجنة ؟

قد سبق أن قررنا فيما تقدم، وبينا بوضوح أن الجن غير أولاد إبليس، خلقوا لعبادة الله تعالى وطاعته، شأنهم فى ذلك شأن بنى الإنسان، وأن منهم الصالحين ومنهم دون ذلك، وعليه فالصالحون منهم، وهم أهل الإيمان والتقوى يدخلون الجنة، وينعمون فيها ان هم ماتوا على الإيمان والتوحيد، والتقوى والعمل الصالح[١].

(١٠) هل تموت الشياطين ؟

لا شك أن الجن ومنهم الشياطين يموتون، إذ هم داخلون فى قوله تعالى:

---

(١) منقول من كتاب عقيدة المؤمن للشيخ أبى بكر الجزائرى

"كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأى آلاء ربكما تكذبان" .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه: «أعوذ بعزتك الذى لا إله إلا أنت ، الذى لا يموت، والجن والإنس يموتون».

أما مقدار أعمارهم فلا نعلمها إلا ما أخبرنا الله عن إبليس اللعين انه سيبقى حياً إلى أن تقوم الساعة *"قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين"* .

أما غيره فلا ندرى مقدار أعمارهم، إلا انهم أطول أعماراً من الإنس.

(١١) تسخير الجن للنبى سليمان

سخر الله لنبيه سليمان عليه السلام فى جملة ما سخر الجن ، والشياطين، يعملون له ما يشاء، ويعذب ويسجن العصاة منهم قال تعالى: *"فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بناء وغواص، وآخرين مقرنين فى الأصفاد"* .

وقال تعالى فى سوة سبأ: *"ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات"* . وقال تعالى: *"وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون"* (سورة النمل).

وهذا التسخير على هذا النحو استجابة من الله لعبده سليمان عندما دعاه وقال: *"رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى"* .

قال القرطبى فى قوله تعالى: *"ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه"* أى بأمره *ومن يزغ منهم عن أمرنا"* الذى أمرناه به من طاعة سليمان *"نذقه من عذاب السعير"* أى فى الآخرة، قاله أكثر المفسرين. وقيل ذلك فى الدنيا،

وذلك أن الله تعالى وكل بهم ـ فيما روى عن السدى ـ ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط من حيث لا يراه فأحرقه.

وقوله: *"يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات"*.

المحراب فى اللغة : كل موضع مرتفع والتماثيل جمع تمثال وهو كل ما صور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان. وقيل: كانت من زجاج ونحاس ورخام تماثيل أشياء ليست بحيوان.

وقوله: *"وجفان كالجواب"* وأهمها الجابية وهى القدر العظيمة، والحوض العظيم الكبير الذى يجبى فيه الشىء أى يُجمع. وكان يقعد على الجفنة الواحدة ألف رجل.

وقوله: *"وقدور راسيات"* قال سعيد بن جبير : هى قدور النحاس. وقال الضحاك : هى قدور تعمل من الجبال. وقال غيره: قد نحتت من الجبال الصم مما عملت الشياطين، أثافيها[1] منها منحوتة هكذا من الجبال. ومعنى راسيات أى ثوابت لا تحمل ولا تحرك لعظمها.

(١٢) الجن لا يعلمون الغيب ..

قال تعالى فى قصة النبى سليمان: *"فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين"*.

قال ابن كثير: يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام وكيف عمى الله موته عن الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة فإنه مكث متوكئا على عصاه وهى منسأته كما قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد مدة طويلة نحواً من سنة فلما أكلتها دابة الأرض وهى

(١) الأثافى (جمع الأثفية) ما يوضع عليه القدر .

الأرضه ضعف وسقط إلى الأرض وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة، تبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لايعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس به.

(١٣) عجزهم عن الإتيان بالمعجزات ..

لا تستطيع الجن الإتيان بمثل المعجزات التى جاءت بها الرسل تدليلاً على صدق ما جاءت به.

فعندما زعم بعض الكفرة أن القرآن من صنع الشياطين قال تعالى:

"وما تنزلت به الشياطين، وما ينبغى لهم وما يستطيعون، انهم عن السمع لمعزولون".

وتحدى الله بالقرآن الإنس والجن: *"قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً".*

(١٤) لا يستطيعون أن يتجاوزوا حدودا معينة فى أجواء الفضاء..

قال تعالى: *"يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان فبأى آلاء ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران".*

فمع قدراتهم وسرعة حركاتهم لهم مجالات لا يستطيعون أن يتعدوها، وإلا فإنهم هالكون.

آدم والملائكة وإبليس

قال تعالى: *"وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين، وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"* .

تبدأ قصة خلق آدم بتلك المحاورة بين الله عز وجل والملائكة: فالله سبحانه يخبر الملائكة بأنه سيجعل فى الأرض خليفة هو آدم وذريته، وأنه سبحانه سيمكنهم فى الأرض ويجعلهم أصحاب السلطان فيها ولكن الملائكة تعجبوا من هذا النبأ، فالذى سيكون خليفة الله فى أرضه لن يستطيع أن يقيم ملكوتا يساوى ملكوت السماء رحمة وطهراً، فقالت الملائكة مخاطبين ربهم: *"أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك"* أى أتجعل فى الأرض بشراً يفسدون فيها بالمعاصى ويسفكون الدماء بينما نحن ننزهك عما لا يليق بجلالك ونمجدك شكراً لك ؟! قالت الملائكة لربها ذلك

لأنهم رأوا أنفسهم أفضل من هذا المخلوق الذى سيجعل خليفة .. ولكن الله أجابهم بالسر المغيب عنهم والحكمة التى اختص بها فى خلق آدم، وهى أنه يعلم ما لا يعلمون: *"قال إنى أعلم ما لا تعلمون"* . وبعد أن خلق الله آدم علمه أسماء الأشياء وحقائقها وخواصها ليتمكن فى الأرض وينتفع بها حق الانتفاع.

ثم أراد الله أن يرى الملائكة رأى العين أن هذا الكائن الجديد الذى صغروا من شأنه هو أكثر منهم علماً وأوسع معرفة. ولهذا سألهم أن يخبروه بأسماء أشياء معينة وخواصها إن كانوا مصيبين ـ فى ظنهم ـ ولكن الملائكة عجزوا عن الإجابة وخاطبوا ربهم معتذرين ـ إننا ننزهك يا ربنا التنزيه اللائق بك، ولا نعترض على مشيئتك إذ لا علم عندنا إلا الذى وهبتنا إياه وأنت العليم بكل شىء الحكيم فى كل أمر تفعله.

ويدعو الله سبحانه آدم ليكون معلماً للملائكة ويقول له: *"يا آدم أنبئهم بأسمائهم"* ، فيجيب آدم، ويظهر فضله عليهم، وهنا خاطب الله الملائكة: *"ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات و الأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون"* .

تكريم آدم

ثم يأمر الله الملائكة بتكريم آدم بأن يسجدوا له سجود تكريم لا سجود عبادة، لأن الله لا يأمر أحداً أن يتوجه بالعبادة إلى سواه .

قال تعالى فى سورة الحجر :

"وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين" .

ففى هذه الآية ثلاث مكرمات خص الله بها آدم :

أولاً : خلقه بيده .

ثانياً : نفخه فيه من روحه .

ثالثاً : أمره الملائكة بالسجود له .

سجود الملائكة وامتناع إبليس

سجد الملائكة كلهم لآدم ـ امتثالاً لأمر الله ـ باستثناء إبليس الذى أبى أن يسجد استكباراً وعناداً، ولقد سأله الله تعالى ـ وهو أعلم ـ عن السبب الذى منعه من السجود لآدم بعد أن أمره به فاحتج بأنه أفضل منه تكويناً، فهو قد خلق من نار، بينما آدم قد خلق من طين، والنار فى رأيه أفضل من الطين وأبدى غاية التكبر، عندئذ طرده الله من رحمته ولعنه لعنة دائمة إلى يوم القيامة بسبب كبريائه.

قال تعالى فى سورة (ص): *"فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين، قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين"* .

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «سولت له نفسه الجاهلة الظالمة: أن فى سجوده لآدم عليه السلام غضاضة عليه، وهضما لنفسه، إذ يخضع ويقع ساجداً لمن خلق من طين، وهو مخلوق من نار. والنار ـ بزعمه ـ أشرف من الطين. فالمخلوق منها خير من المخلوق منه، وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضة عليه، وهضم لمنزلته. فلما قام بقلبه هذا الهوس، وقارنه الحسد لآدم، لما رأي ربه سبحانه قد خصه به من أنوع الكرامة فإنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وميزه بذلك عن الملائكة وأسكنه جنته، فعند ذلك بلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ، وكان عدو الله يطيف به وهو صلصال كالفخار، فيتعجب منه، ويقول: لأمر عظيم قد خلق هذا، ولئن

(١) فى كتاب : «إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان» .

سلط عليّ لأعصينه، ولئن سلطت عليه لأهلكنه فلما تم خلق آدم عليه السلام في أحسن تقويم وأكمل صورة وأجملها وكملت محاسنه الباطنة، بالعلم والحلم والوقار، وتولى ربه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتم صورة، طوله في السماء ستون ذراعاً، قد ألبس رداء الجمال والحسن والمهابة والبهاء. فرأت الملائكة منظراً لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل، فوقعوا كلهم سجوداً له، بأمر ربهم تبارك وتعالى فشق الحسود قميصه من دبر، واشتعلت في قلبه نيران الحسد المتين فعارض النص بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبطلين.

وقال : *"أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين"* .

فأعرض عن النص الصريح، وقابله بالرأي الفاسد القبيح. ثم أردف ذلك بالاعتراض على العليم الحكيم، الذي لا تجد العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيلاً.

فقال: *"أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتنِ إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً"* .

وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني ، لم كرمته عليّ؟ وغور هذا الاعتراض، أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي، لأن المفضول يخضع للفاضل، فلمَ خالفت الحكمة؟

ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وإزرائه به، فقال: *"أنا خير منه"* .

ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم عليه السلام، وأصله. فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود ومعصيته الرب المعبود. فجمع بين الجهل والظلم والكبر والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها ، ووضعها من حيث أراد رفعتها ، وأذلها من حيث أراد عزتها ، وآلمها كل الإلم من حيث أراد لذتها. ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في

مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يسمع منه العاقل ويقبل ويواليه؟

قال تعالى : *"وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً"* .

طلب الإنظــــار

طلب إبليس من ربه أن يمهله حياً إلى يوم القيامة فأجاب الله طلبه لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى . قال تعالى: *"قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين، قال انظرنى إلى يوم يبعثون، قال إنك من المنظرين"* . وما أن أذن له بالبقاء حتى قام يسرد على الله تعالى خطته لإضلال البشرية: *"قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين"* . قال سبحانه: *"اخرج منها مذؤماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين"* .

وفى موضع آخر يبين القرآن عزم إبليس على إغواء آدم وذريته باستثناء عباد الله الصالحين:

قال تعالى: *"وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ، قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ، قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا"* .

وفى موضع آخر: *"قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم*

أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين، قال هذا صراط عليّ مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين".

إغواء إبليس لآدم

لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة أباح لهما أن يتمتعا بكل شيء فيها فيأكلان ما يشتهيان من ثمرها، ولم ينههما إلا عن شجرة واحدة، وأمرهما أن لا يقرباها وأن لا يذوقا من ثمرها، وأنهما إن فعلا ذلك يكونان من الظالمين لنفسيما بمخالفة أمر الله.

سُر إبليس فى قرارة نفسه لأنه وجد فى ذلك النهى منفذاً ينفذ منه إلى آدم وزوجته، فأخذ يحدثهما ويغريهما ليأكلا من ثمر تلك الشجرة ليكون عاقبة ذلك كشف ما ستر وغطى من عوراتهما. وقد بالغ إبليس فى إلحاحه وخداعه فأوهمهما ان الله منعهما من الأكل من تلك الشجرة لكى لايصيرا ملكين، ولا يخلدا فى الجنة ذات النعيم، وأقسم انه لهما من الناصحين قال تعالى:

"ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين".

خطيئة آدم وعفو الله تعالى ..

نسى آدم وحواء أن إبليس هو عدوهما، ووقعا فى حبائل الفتنة، وأكلا من الشجرة، فلما ذاقا طعمها، انكشفت لهما عوراتهما، وكانا قبل ذلك لا يرى كل منهما عورته ولا عورة الآخر، ومن فرط حيائهما أخذا يجمعان بعض أوراق الشجر ليغطيا به ما انكشف، وناداهما ربهما مؤنباً إياهما على ذنبهما: ألم أنهكما عن الأكل من تلك الشجرة، وأخبركما ان الشيطان لكما عدو مبين؟..

وشعر آدم وحواء بمبلغ ما اقترفا من إثم فى معصيتهما لله، فندما أشد

الندم وتضرعا إلى ربهما قائلين: يا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين.

قال تعالى: *"فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين"* .

قبل الله توبة آدم.. *" فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم"* .

وبعد ذلك جاء أمر الله بالهبوط إلى الأرض حيث تبدأ المعركة بين الحق والباطل. قال تعالى: *"قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون، يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشيطان أولياء للذين لا يؤمنون"* .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

لقد ظن اللعين بجهله أن الله سبحانه يتخلى عن صفيه وحبيبه الذى خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شىء، من أجل أكلة أكلها. وما علم أن الطبيب قد علم المريض الدواء قبل المرض، فلما أحس بالمرض بادر إلى استعمال الدواء، لما رماه العدو بسهم وقع فى غير مقتل، فبادر إلى مداواة الجرح، فقام كأن لم يكن به قَلَبه[1].

بُلى العدو بالذنب فأصر واحتج وعارض الأمر، وقدح فى الحكمة ولم يسأل

---

(١) قَلَبه ـ بالتحريك ـ أى داء وعلة .

الإقالة ولا ندم على الزلة.

وبلى الحبيب بالذنب فاعترف وتاب ونـدم، وتضرع واستكان وفزع إلى مفزع الخليقة، وهو التوحيد والاستغفار، فأزيل عنه العتب وغفر له الذنب، وقبل منه المتاب، وفتح له من الرحمة والهداية كل باب، ونحن الأبناء ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن كانت شيمته التوبة والاستغفار فقد هدى لأحسن الشيم. أ.هـ[1].

كان الناس أمة واحدة

ثم جرى الأمر على السداد والاستقامة، والأمة واحدة ، والدين واحد، والمعبود واحد. قال تعالى:

"وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون".

وقال تعالى :

"كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه".

قال سعيد عن قتادة: «ذكر لنا : أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى، وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله عز وجل نوحاً، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، وبعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق».

وقال ابن عباس: «كان الناس أمة واحدة: كانوا على الإسلام كلهم».

والمقصود أن الشيطان كادهم وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين، كفاراً

---

(١) من كتاب إغاثة اللهفان .

ومؤمنين فكادهم بعبادة الأصنام، وإنكار البعث.

وكان أول ما كاد به عباد الأصنام من جهة العكوف على القبور، وتصاوير أهلها ليتذكروهم بها، كما قص الله سبحانه قصصهم فى كتابه، فقال تعالى:

"وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً، ولا يغوث ويعوق ونسراً" .

قال البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت».

وقال ابن جرير عن محمد بن قيس قال: كانوا قوماً صالحين من بنى آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم، الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة، إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم».

قال الكلبى: وكان عمرو بن لحى كاهناً وله رئى من الجن فقال له: (أى الجن) عجل المسير والظعن من تهامة، بالسعد والسلامة قال: جير[1] ولا إقامة قال: ائت حنف جدة، تجد فيها أصناماً معدة، فأوردها تهامة ولا تهب ثم ادع العرب إلى عبادتها تجب. فأتى نهر جدة فاستثارها، ثم حملها حتى ورد تهامة، وحضر الحج، فدعا العرب إلى عبادتها قاطبة فأجابه عوف بن عذرة فدفع اليه: «ودا»، فحمله فكان بوادى القرى بدومة الجندل وسمى ابنه عبد ود، فهو أول من سمى به وجعل عوف ابنه عامراً سادناً له. فلم يزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالإسلام. وأجابت عمرو بن لحى مضر بن نزار فدفع اليهم:

(١) جير: أى نعم.

سواعاً، فكان بأرض يقال لها: وهاط من بطن نخلة، يعبده من يليه من مضر.

وأجابته مذحج فدفع إليهم يغوث وكان بأكمه باليمن تعبده مذحج ومن والاها.

وأجابته همدان. فدفع اليهم: يعوق فكان بقرية يقال لها: خيوان تعبده همدان ومن والاها من اليمن.

وأجابت حمير : فدفع اليهم : نسراً فكان بموضع من أرض سبأ فلم يزل يعبدونه حتى هودهم ذو نواس.

فلم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله النبى صلى الله عليه وسلم فهدمها وكسرها.

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجرُّ قصبه[1] فى النار. وكان أول من سيب السوائب وغير دين إبراهيم».

قال ابن القيم رحمه الله[2] :

وتلاعب الشيطان بالمشركين فى عبادة الأصنام له أسباب عديدة، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم.

فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى، الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم، كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام: ولهذا لعن النبى صلى الله عليه وسلم المتخذين على القبور المساجد والسرج ونهى عن الصلاة إلى القبور: وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثناً يعبد، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدا، وقال «إشتد غضب الله على قوم إتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وأمر بتسوية القبور، وطمس التماثيل.

فأبى المشركون إلا خلافه فى ذلك كله، إما جهلاً، وإما عناداً لأهل

---

(١) قصبه : أمعاءه.

(٢) من كتاب إغاثة اللهفان«بتصرف».

التوحيد. وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين.

وأما خواصهم فإنهم اتخذوها ـ بزعمهم ـ على صور الكواكب المؤثرة فى العالم عندهم، وجعلوا لها بيوتاً وسدنة، وحجاباً وقرباناً، ولم يزل هذا فى الدنيا قديماً وحديثاً.

ومن أسباب عباداتها أيضاً: أن الشياطين تدخل فيها، تخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات، وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم، وهم لا يشاهدون الشيطان، فجهلتهم وسقطهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب، وعقلاؤهم يقولون: إن تلك روحانيات الأصنام وبعضهم يقول: إنها الملائكة. وبعضهم يقول: إنها العقول المجردة وبعضهم يقول: هى روحانيات الأجرام العلوية. وكثير منهم لا يسأل عما عهد بل إذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه إلهاً، ولا يسأل عما وراء ذلك.

وبالجملة فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان ولم يتخلص منها إلا الحنفاء، أتباع ملة ابراهيم عليه السلام، وعبادتها فى الأرض من قبل قوم نوح كما تقدم، وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجابها والكتب المصنفة فى شرائع عبادتها طبَّق ذلك كله فى الأرض.

ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلو فى المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته حتى جعل فيه حظ من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه، وهذا التشبيه الواقع فى الإسم الذى أبطله الله سبحانه، وبعث رسله ، وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله.. والقرآن مملوء من إبطال أن يكون فى المخلوقات ما يشبه الرب تعالى أو يماثله فهذا هو الذى قصد بالقرآن، إبطالاً لما عليه المشركون والمشبهون العادلون بالله تعالى غيره.

قال تعالى : *"فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون"* . وقال: *"ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله"* .

فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلاً للخالق. فالند: الشبه.

قال ابن مسعود ، وابن عباس فى تفسير هذه الآية: أى لا تجعلوا لله أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله.

فالذى أنكره الله سبحانه عليهم: هو تشبيه المخلوق به، حتى جعلوه نداً لله تعالى، يعبدونه كما يعبدون الله، وكذلك قوله فى الآية الأخرى:

"ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله" .

فأنكر هذا التشبيه عليهم وهو أصل عبادة الأصنام.

ونظير هذا قوله تعالى: *"الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون"* .

قال ابن عباس: يريد عدلوا بى من خلقى الحجارة والأصنام، بعد أن أقروا بنعمتى وربوبيتى.

ومثله قوله تعالى عن هؤلاء المشبهين إنهم يقولون فى النار لآلهتهم:

"تالله إن كنا لفى ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين" .

فاعترفوا أنهم كانوا فى أعظم الضلال وأبينه، إذ جعلوا لله شبهاً وعدلاً من خلقه سووهم به فى العبادة والتعظيم.

مكايد الشيطان التي يكيد بها ابن آدم [1]

قال تعالى إخباراً عن عدوه إبليس، لما سأله عن امتناعه عن السجود لآدم واحتجاجه بأنه خير منه وإخراجه من الجنة أنه سأله أن ينظره، فأنظره. ثم قال عدو الله: "*فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين*" .

قال جمهور المفسرين والنحاة : حذف «على» فانتصب الفعل. والتقدير: لأقعدن لهم على صراطك المستقيم.

فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.

وقوله: "*ثم لآتينهم من بين أيديهم*" قال الحسن: «من قبل الآخرة، تكذيباً بالبعث والجنة والنار».

"*ومن خلفهم*" قال ابن عباس أى: «أرغبهم فى دنياهم» وقال الحسن: «من قبل دنياهم أزينها لهم وأشهيها لهم».

"*وعن أيمانهم*" قال الحسن: «من قبل الحسنات أثبطهم عنها».

"*وعن شمائلهم*" قال الحسن: «وعن شمائلهم السيئات يأمرهم بها ويحثهم عليها ويزينها فى أعينهم».

وصح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «ولم يقل ومن فوقهم» لأنه علم ان الله من فوقهم.

قال قتادة: «أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله».

---

(1) من كتاب إغاثة اللهفان «باختصار» .

قال شقيق: ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدى، ومن خلفى، وعن يمينى، وعن شمالى، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم.. فاقرأ:

"وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى" .

وأما من خلفى فيخوفنى الضيعة على من أخَلّفه، فأقرأ:

"وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها" .

ومن قبل يمينى، يأتينى من قبل النساء، فأقرأ :

"والعاقبة للمتقين" .

ومن قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات، فأقرأ :

"وحيل بينهم وبين ما يشتهون" .

قال ابن القيم: السبل التى يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه فأى سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصداً له، فإن سلكها فى طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه، أو يعوقه ويبطئه وإن سلكها لمعصية وجده عليها كان حاملاً له وخادماً ومعيناً وممنياً، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك. وقال تعالى: *"إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريدا ، لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ، ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا"* .

حقيقة الفرض هو التقدير. والمعنى : أن من اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظه المقوم، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه. فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وأولياء الله وحزبه وخاصته.

وقوله: "*ولأضلنهم*" يعنى عن الحق "*ولأمنينهم*" قال ابن عباس: يريد تعويق التوبة وتأخيرها.

وقال الكلبى: أمنيهم أنه لا جنة ،لا نار ولا بعث.

وقيل: أمنيهم طول البقاء فى نعيم الدنيا، فأطيل لهم الأمل ليؤثروها على الآخرة. وقوله: "*ولآمرنهم فليبتكنَّ آذان الأنعام*".

البتك: القطع وهو فى هذا الموضع: قطع آذان البحيرة قال المفسرون: كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وحرموا ركوبها.

وقوله: "*ولآمرنهم فليغيرن خلق الله*" قال ابن عباس وغيره: يريد دين الله. ومعنى ذلك: هو أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة، وهى ملة الإسلام، كما قال تعالى:

"*فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون*".

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:

«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء فهل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها».

ثم قرأ أبوهريرة:

"*فطرت الله التى فطر الناس عليها*" ـ الآية (والحديث متفق عليه).

فجمع عليه الصلاة والسلام بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير وتغيير الخلقة بالجدع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يغيرهما،

فغير فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التى خلقوا عليها، وغير الصورة بالجدع والبتك، فغير الفطرة الى الشرك والخلقة الى البتك، فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة.

ثم قال: "*يعدهم ويمنيهم*" فوعده ما يصل الى قلب الإنسان ، نحو: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دول ستكون لك كما كانت لغيرك، ويطوّل أمله، ويعده بالحسنى على شركه ومعاصيه، ويمنيه الأمانى الكاذبة على اختلاف وجوهها، والفرق بين وعده وتمنيته أنه يعد الباطل، ويمنى المحال والنفس المهينة التى لا قدر لها تغتذى بوعده وتمنيته ومن ذلك قوله تعالى:

"*الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا*" .

قيل يعدكم الفقر: يخوفكم به: يقول، إن أنفقتم أموالكم افتقرتم، ويأمركم بالفحشاء قالوا: هى البخل فى هذا الموضوع خاصة ويذكر عن مقاتل والكلبى «كل فحشاء ذكرت فى القرآن فهى الزنا إلا فى هذا الموضع إنها البخل». والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهى كل فاحشة، فهى صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة العموم، أى بالفعلة الفحشاء والخلة الفحشاء، ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره يأمرهم بالشر ويخوفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان فإنه إذا خوفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها، وسمى سبحانه تخويفه وعد الانتظار الذى خوفه إياه كما ينتظر الموعود ما وعد به، ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامتثال إعطاء الخير، وفى الحديث المشهور: «إن للملك بقلب ابن آدم لمة(١)، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب

---

(١) اللمـة : الخطـرة .

بالوعد ثم قرأ قوله تعالى: *"الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم"*.

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده. نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان.

ـ ومن كيد الشيطان للإنسان : أنه يورده الموارد التى يخيل اليه أن فيها منفعته، ثم يصدره المصادر التى فيها عطبه، ويتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت به، ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنا والقتل، ويدل عليه ويفضحه، قال تعالى: *"وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب"*.

فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر فى صورة سراقة بن مالك وقال: أنا جار لكم من بنى كنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة لنصر رسوله فرّ عنهم وأسلمهم، كما قال حسان بن ثابت:

دلاّهم بغرور ثم أسلمهم ** إن الخبيث لمن والاه غرّار

وكذلك فعل بالراهب الذى قتل المرأة وولدها وأمره بالزنا ثم بقتلها ثم دل أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فرّ عنه وتركه. وفيه أنزل الله سبحانه:

"كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين".

وهذا السياق لا يختص بالذى ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام فى كل من أطاع الشيطان فى أمره له بالكفر، لينصره ويقضى حاجته، فإنه يتبرأ منه

ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: *"إني كفرت بما أشركتمون من قبل"*.

فأوردهم ـ النار ـ شر الموارد وتبرأ منهم كل البراءة.

ـ ومن كيد عدو الله تعالى :

أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه بهذا فقال:

"إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين".

والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: «يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم»

ـ ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل اليه أنه من أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يخيل له أنه يضره، فلا إله إلا الله. كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان؟ وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة؟ وكم بهرج من الزيوف على الناقدين، وكم روج من الزغل على العارفين؟ فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم الفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه، وترك الأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: *"عليكم أنفسكم"*.

والإعراض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فى قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والإدهان فى دين الله فى قالب العقل المعيشى الذى يندرج به العبد بين الناس.

فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا، وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة، وصاحب الأمة اللوطية حين خسف بهم واتبعوا بالرجم بالحجارة، وصاحب قوم فرعون حين أخذوا الأخذة الرابية، وصاحب عباد العجل حين جرى عليهم ما جرى، وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر، وصاحب كل هالك ومفتون.

ـ وأول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة: أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما فى الجنة، قال تعالى:

"فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين، فدلاهما بغرور".

فالوسوسة : حديث النفس والصوت الخفى.

وعلم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما، فإنها معصية والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انتهك ذلك الستر فبدت لهما سوءاتهما فالمعصية تبدى السوءة الباطنة والظاهرة.

ثم قال: *"ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين"*.

أى : إلا كراهة أن تكونا ملكين، وكراهة أن تخلدا فى الجنة، ومن ههنا

دخل عليهما لما عرف أنهما يريدن الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذى يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجرى منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه، ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك علّم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود.

فشامٌ عدو الله الأبوين، فأحسٌ منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد فى تلك الدار فى النعيم المقيم فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب فقاسمهما بالله أنه لهما لمن الناصحين، وقال *"مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين"*.

أى مانهاكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا فى الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون، ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود فى الجنة، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه، أنه ناصح لهما، فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعد القدر، فأخذتهما سنة الغفلة واستيقظ لهما العدو، كما قيل:

واستيقظوا وأراد الله غفلتهم ** لينفذ القدر المحتوم فى الأزل

ثم قال تعالى: *"فدلاهما بغرور"*.

قال مطرف بن عبدالله: قال لهما انى خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما فاتبعانى أرشدكما وحلف لهما، وإنما يخدع المؤمن بالله، قال قتادة: «وكان بعض أهل العلم يقول من خادعنا بالله خدعنا» فالمؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم. وفى الصحيح: «أن عيسى ابن مريم عليه السلام رأى رجلاً يسرق، فقال: سرقت؟ فقال: لا والله الذى لا إله إلا هو، فقال المسيح: آمنت بالله

وكذبت بصرى».

فقد كان الله سبحانه وتعالى فى قلب المسيح عليه السلام أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذباً، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فرد التهمة إلى بصره لما اجتهد له فى اليمين، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له بالله عز وجل، وقال: ما ظننت أحداً يحلف بالله تعالى كاذباً .

ـ ومن كيده العجيب .. أنه يشام النفس، حتى يعلم أى القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة.

فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ فى تثبيطه وإضعاف همته وإرادته على المأمور به، وثقله عليه، فهون عليه تركه، حتى يتركه جملة، أو يقصر فيه ويتهاون به.

وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به، ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة فيقصر بالأول ويتجاوز بالثانى، كما قال بعض السلف: «ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما الى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولايبالى بأيهماظفر».

وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل فى هذين الواديين: وادى التقصير، ووادى المجاوزة والتعدى. والقليل منهم جداً الثابت على الصراط الذى كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس.

وقوم قصر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما فى أيديهم وقعدوا كلاً على الناس، مستشرفين إلى ما بأيديهم.

وقوم قصر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأضروا بقلوبهم وأبدانهم.

وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفور أو شاة ليأكلوه، وتجاوز بآخرين حتى جرأهم على الدماء المعصومة.

وكذلك قصر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم النافع، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به.

وقصر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله تعالى.

وكذلك قصر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات اليهم بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ماحللوه والحرام ماحرموه، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة الصريحة.

وقصر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يشفع أحداً فى أحد البتة، ولا يرحم أحدا بشفاعة أحد، وتجاوز بآخرين حتى زعموا أن المخلوق يشفع عنده بغير إذنه، كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم.

وقصر بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقاتلوهم واستحلوا حرمتهم، وتجاوز بقوم حتى ادعوا فيهم خصائص النبوة: من العصمة وغيرها . وربما ادعوا فيهم الإلهية.

وكذلك قصر باليهود فى المسيح حتى كذبوه ورموه وأمه بما برأهما الله تعالى منه، وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله، وجعلوه إلهاً يعبد مع الله. وقصر بقوم حتى تزينوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه، وتجاوز بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيئة ما يسقطون به جاههم عندهم، وسموا أنفسهم الملامتية.

وقصر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا اليها وعدوها فضلاً أو فضولا، وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يسقط وارده لورده.

وهذا باب واسع جداً لو تتبعناه لبلغ مبلغاً كبيراً، وإنما أشرنا اليه أدنى إشارة.

ـــ ومن حيل الشيطان ومكايده : الكلام الباطل، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة التي هي زبالة الأذهان، ونحاتة الأفكار. والزبد الذي يقذف به القلوب المظلمة المحيرة، التي تعدل الحق بالباطل، والخطأ بالصواب، قد تقاذفت بها أمواج الشبهات، ورانت عليها غيوم الخيالات، فمركبها القيل والقال، والشك والتشكيك، وكثرة الجدال، ليس لها حاصل من اليقين يعول عليه، ولا معتقد مطابق للحق يرجع اليه، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، فقد اتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورا، وقالوا من عند أنفسهم فقالوا منكراً من القول وزوراً فهم في شكهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تلته الشياطين على ألسنة أسلافهم من أهل الضلال، فهم اليه يحاكمون، وبه يتخاصمون، فارقوا الدليل واتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل.

ـ ومن كيده بهم وتحيله على إخراجهم من العلم والدين: أن ألقى على ألسنتهم أن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد اليقين، وأوحى إليهم أن القواطع العقلية والبراهين اليقينية في المناهج الفلسفية والطرق الكلامية، فحال بينهم وبين اقتباس الهدى واليقين من مشكاة القرآن، وأحالهم على منطق يونان، وعلى ما عندهم من الدعاوى الكاذبة العريّة عن البرهان، وقال لهم: تلك علوم قديمة صقلتها العقول والأذهان ومرت عليها القرون والأزمان فانظر كيف تلطف بكيده ومكره حتى أخرجهم من الإيمان كإخراج الشعرة من

العجين.

ـ ومن كيده : ما ألقاه إلى جُهال المتصوفة من الشطح والطامات، وأبرزه لهم فى قالب الكشف من الخيالات، فأوقعهم فى أنواع الأباطيل والترهات، وفتح أبواب الدعاوى الهائلات، وأوحى إليهم: أن وراء العلم طريقاً إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان، وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن، فحسَّن لهم رياضة النفوس وتهذيبها وتصفية الأخلاق والتجافى عما عليه أهل الدنيا، وأهل الرياسة والفقهاء، وأرباب العلوم والعمل على تفريغ القلب وخلوه من كل شىء حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلم، فما خلا من صورة العلم الذى جاء به الرسول نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الباطل، وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفاً وعياناً، فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا: لكم العلم الظاهر، ولنا الكشف الباطن، ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة، ولكم القشور ولنا اللباب، فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار كما ينسلخ الليل والنهار، ثم أحالهم فى سلوكهم على تلك الخيالات وأوهمهم أنها من الآيات البينات، وأنها من قبل الله سبحانه إلهامات وتعريفات فلا تعرض على السنة والقرآن، ولا تعامل إلا بالقبول والإذعان.

فلغير الله لا له سبحانه ما يفتحه عليهم الشيطان من الخيالات والشطحات وأنواع الهذيان. وكلما ازدادوا بعداً وإعراضاً عن القرآن وما جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم.

ـ ومن أنواع مكايده ومكره : أن يدعو العبد بحسن خلقه وطلاقته وبشره إلى أنواع من الآثام والفجور، فيلقاه من لا يخلصه من شره إلا تجهمه والتعبيس فى وجهه والإعراض عنه، فيحسن له العدو أن يلقاه ببشره، وطلاقة وجهه، وحسن كلامه، فيتعلق به، فيروم التخلص منه فيعجز، فلا

يزال العدو يسعى بينهما حتى يصيب حاجته، فيدخل على العبد بكيده من باب حسن الخلق، وطلاقة الوجه، ومن ههنا وصى أطباء القلوب بالإعراض عن أهل البدع وأن لا يسلم عليهم، ولا يريهم طلاقة وجهه ولا يلقاهم إلا بالعبوس والإعراض.

وكذلك أوصوا عند لقاء من يخاف الفتنة بلقائه من النساء والمردان وقالوا: متى كشفت للمرأة أو الصبى بياض أسنانك كشفا لك عما هنالك؟ ومتى لقيتهما بوجه عابس وقيت شرهما.

ـ ومن مكايده : أنه يأمرك أن تلقى المساكين وذوى الحاجات بوجه عبوس ولا تريهم بشراً ولا طلاقة، فيطمعوا فيك، ويتجرأوا عليك، وتسقط هيبتك من قلوبهم، فيحرمك صالح أدعيتهم، وميل قلوبهم إليك، ومحبتهم لك فيأمرك بسوء الخلق، ومنع البشر والطلاقة مع هؤلاء، وبحسن الخلق والبشر مع أولئك، ليفتح لك باب الشر ، ويغلق عنك باب الخير.

ـ ومن مكايد الشيطان : أنه يأمرك بإعزاز نفسك وصونها حيث يكون رضى الرب تعالى فى إذلالها وابتذالها ، كجهاد الكفار والمنافقين وأمر الفجار والظلمة بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، فيخيل إليك أن ذلك تعريض لنفسك إلى مواطن الذل، وتسليط الأعداء وطعنهم فيك، فيزول جاهك فلا يقبل منك بعد ذلك ولا يسمع منك. ويأمرك بإذلالها وامتهانها حيث تكون مصلحتها فى إعزازها ، وصيانتها كما يأمرك بالتبذل لذوى الرياسات، وإهانة نفسك لهم، ويخيل إليك أنك تعزها بهم، وترفع قدرها بالذل لهم، ويذكرك قول الشاعر :

أُهين لهم نفسى لأرفعها بهم ** ولن تُكرم النفس التى لا تهينها

وغلط هذا القائل: فإن ذلك لا يصلح إلا لله وحده، فإنه كلما أهان العبد نفسه له أكرمه وأعزه، بخلاف المخلوق، فإنك كلما أهنت نفسك له ذللت عند الله وعند أوليائه وهنت عليه.

ـ ومن كيده وخداعه : أنه يأمر الرجل بإنقطاعه فى مسجد، أو رباط أو

زاوية أو تربة، ويحبسه هناك، وينهاه عن الخروج، ويقول له: متى خرجت تبذلت للناس وسقطت من أعينهم، وذهبت هيبتك من قلوبهم، وربما ترى فى طريقك منكراً، وللعدو فى ذلك مقاصد خفية يريدها منه، منها الكبر، واحتقار الناس، وحفظ الناموس وقيام الرياسة، ومخالطة الناس تذهب ذلك. وهو يريد أن يزار ولا يزور، ويقصده الناس ولا يقصدهم، ويفرح بمجىء الأمراء إليه، واجتماع الناس عنده، وتقبيل يده، فيترك من الواجبات والمستحبات والقربات ما يقربه إلى الله، ويتعوض عنه بما يقرب الناس إليه.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى السوق، قال بعض الحفاظ: «وكان يشترى حاجته ويحملها بنفسه».

وكان أبوبكر رضى الله عنه يخرج إلى السوق يحمل الثياب، فيبيع ويشترى. ومر عبدالله بن سلام رضى الله عنه وعلى رأسه حزمة حطب، فقيل له: ما يحملك على هذا، وقد أغناك الله عز وجل؟ فقال: أردت أن أدفع به الكبر، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخل الجنة عبد فى قلبه مثقال ذرة من كبر».

وكان أبوهريرة رضى الله عنه يحمل الحطب وغيره من حوائج نفسه وهو أمير على المدينة، ويقول: «أفسحوا لأميركم أفسحوا لأميركم».

ـ ومن كيد الشيطان : أنه يغرى الناس بتقبيل يده، والتمسح به، والثناء عليه وسؤاله الدعاء، ونحو ذلك، حتى يرى نفسه ويعجبه شأنها، فلو قيل له: إنك من أوتاد الأرض، وبك يدفع البلاء عن الخلق، ظن ذلك حقاً، وربما قيل له: إنه يتوسل به إلى الله تعالى ويسأل الله تعالى به وبحرمته، فيقضى حاجتهم، فيقع ذلك فى قلبه، ويفرح به، ويظنه حقاً، وذلك كل الهلاك، فإذا رأى من أحد من الناس تجافياً عنه، أو قلة خضوع له، تذمر لذلك ووجد فى باطنه، وهذا شر من أرباب الكبائر المصرين عليها وهم أقرب إلى السلامة منه.

ــ ومن كيده : أنه يحسن إلى أرباب التخلى والزهد والرياضة العمل بهاجسهم وواقعهم دون تحكيم أمر الشارع، ويقولون: القلب إذا كان محفوظاً مع الله كانت هواجسه وخواطره معصومة من الخطأ، وهذا من أبلغ كيد العدو فيهم. فإن الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع: رحمانية، وشيطانية، ونفسانية، وقد تأتى فى صورة رؤيا، فلو بلغ العبد من الزهد والعبادة ما بلغ فمعه شيطانه ونفسه لايفارقانه إلى الموت، والشيطان يجرى منه مجرى الدم، والعصمة إنما هى للرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومن عداهم يصيب ويخطىء وليس بحجة على الخلق. وقد كان سيد المحدثين الملهمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، يقول الشىء فيرده عليه من هو دونه، فيتبين له الخطأ، فيرجع اليه وكان يعرض هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليها ولا يحكم بها ولا يعمل بها. وهؤلاء الجهال يرى أحدهم أدنى شىء فيحكم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليهما، ويقول: حدثنى قلبى عن ربى، ونحن أخذنا عن الحى الذى لا يموت، وأنتم أخذتم عن الوسائط، ونحن أخذنا بالحقائق وأنتم اتبعتم الرسوم وأمثال ذلك من الكلام الذى هو كفر وإلحاد، وغاية صاحبه أن يكون جاهلاً يعذر بجهله، حتى قيل لبعض هؤلاء: ألا تذهب فتسمع الحديث من عبدالرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الملك الخلاق؟!!

ومن ظن انه يستغنى عما جاء به الرسول بما يلقى فى قلبه من الخواطر والهواجس فهو أعظم الناس كفرا، وكذلك إن ظن أنه يكتفى بهذا تارة وبهذا تارة، فما يلقى فى القلوب لا عبرة به ولا التفات إليه إن لم يعرض على ماجاء به الرسول ويشهد له بالموافقة، وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان.

وقد سئل عبدالله بن مسعود عن مسألة المفوضة شهراً، فقال بعد الشهر: أقول فيها برأيى فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمنى ومن

الشيطان، والله برىء منه ورسوله.

وكتب كاتب لعمر رضى الله عنه بين يديه: هذا ما أرى الله عمر، فقال: لا، إمحه واكتب: هذا ما رأى عمر.

واتهام الصحابة لآرائهم كثير ومشهور، وهم أبر الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأبعدها من الشيطان، فكانوا أتبع الأمة للسنة، وأشدهم اتهاماً لآرائهم، وهؤلاء ضد ذلك.

وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادة، ولم يلتفتوا الى شىء من الخواطر والهواجس والإلهامات، حتى يقوم عليها شاهدان.

قال الجنيد: قال أبوسليمان الدارانى: ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة.

وقال أبويزيد: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يتربع فى الهواء، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى، وحفظ الحدود.

وقال أيضاً: من ترك قراءة القرآن، ولزوم الجماعات، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وادعى بهذا الشأن فهو مدع.

وقال سرى السقطى: من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غالط.

وقال الجنيد: مذهبنا هذا مقيد بالأصول بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث، ويتفقه، لا يقتدى به.

وقال أبوبكر الدقاق: من ضيع حدود الأمر والنهى فى الظاهر حرم مشاهدة القلب فى الباطن.

وقال أبوحفص: من لم يزن أحواله وأفعاله بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعدوه فى ديوان الرجال..

وما أحسن ما قال أبوأحمد الشيرازى: كان الصوفية يسخرون من

الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم.

ـــ ومن كـــيده : أمرهم بلزوم زى واحد، ولبسة واحدة، وهيئة ومشية معينة، وشيخ معين، وطريقة مخترعة، ويفرض عليهم لزوم ذلك بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض، فلا يخرجون عنه ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمونه، وربما يلزم أحدهم موضعاً معيناً للصلاة لا يصلى إلا فيه، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أن يُوطِّن الرجل المكان للصلاة كما يُوطِّن البعير».

وكذلك ترى أحدهم لا يصلى إلا على سجادة، ولم يصل عليه السلام على سجادة قط ولا كانت السجاة تفرش بين يديه، بل كان يصلى على الأرض، وربما سجد فى الطين، وكان يصلى على الحصير، فيصلى على ما اتفق بسطه، فإن لم يكن ثمة شىء صلى على الأرض..

ومن تأمل هدى الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته وجده مناقضاً لهدى هؤلاء فإنه كان يلبس القميص تارة، والقباء تارة، والجبة تارة، والإزار والرداء تارة، ويركب البعير وحده، ومردفاً لغيره، ويركب الفرس مسرجاً وعرياناً، ويركب الحمار، ويأكل ما حضر، ويجلس على الأرض، وعلى الحصير تارة، وعلى البساط تارة، ويمشى وحده تارة، ومع أصحابه تارة، وهديه عدم التكلف والتقيد بغير ما أمره به ربه، فبين هديه وهدى هؤلاء بون بعيد.

ـــ ومن كيده الذى بلغ به من الجهال ما بلغ: الوسواس الذى كادهم به فى أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية، حتى ألقاهم فى الآصار والأغلال، وأخرجهم عن اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخيل إلى أحدهم أن ما جاءت به السنة لا يكفى حتى يضم اليه غيره، فجمع لهم بيَن هذا الظن الفاسد، والتعب الحاضر، وبطلان الأجر أو تنقيصه.

ولا ريب أن الشيطان هو الداعى إلى الوسواس، فأهله قد أطاعوا

الشيطان، ولبوا دعوته، واتبعوا أمره، ورغبوا عن اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقته، حتى أن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو اغتسل كاغتساله لم يطهر ولم يرتفع حدثه، ولولا العذر بالجهل لكان هذا مشاقة للرسول، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالمد، وهو قريب من ثلث رطل بالدمشقى، ويغتسل بالصاع وهو نحو رطل وثلث، والموسوس يرى أن ذلك القدر لا يكفيه لغسل يديه، وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه توضأ مرة، ولم يزد على ثلاث، بل أخبر أن: «من زاد عليها فقد أساء وتعدى وظلم»..

قلت : ذكر أبوالفرج بن الجوزى عن أبى الوفاء بن عقيل: أن رجلاً قال له: أنغمس فى الماء مراراً كثيرة وأشك: هل صح لى الغسل أم لا ؟ فما ترى فى ذلك؟ فقال له الشيخ: اذهب، فقد سقطت عنك الصلاة. قال: وكيف؟ قال: لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «رفع القلم عن ثلاثة: المجنون حتى يُفيق والنائم حتى يستيقظ والصبى حتى يبلغ».

ومن ينغمس فى الماء مراراً ويشك هل أصابه الماء أم لا، فهو مجنون.

قال: وربما يشغله بوسواسه حتى تفوته الجماعة، وربما فاته الوقت، ويشغله بوسوسته فى النية حتى تفوته التكبيرة الأولى، وربما فوت عليه ركعة أو أكثر، ومنهم من يحلف أنه لا يزيد على هذا ثم يكذب.

قلت: وحكى لى من أثق به عن موسوس عظيم رأيته أنا يكرر عقد النية مراراً عديدة فيشق على المأمومين مشقة كبيرة..

قال: ومنهم من يتوسوس فى إخراج الحرف حتى يكرره مراراً.

وقد بلغ الشيطان منهم أن عذبهم فى الدنيا قبل الآخرة، وأخرجهم عن اتباع الرسول وأدخلهم فى جملة أهل التنطع والغلو، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. فمن أراد التخلص من هذه البلية فليستشعر أن الحق فى اتباع الرسول

صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله، وليعزم على سلوك طريقته عزيمة من لا يشك أنه على الصراط المستقيم، وأن ما خالفه من تسويل إبليس ووسوسته، ويوقن انه عدو له لا يدعوه إلى خير *"إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير"*.

ولينظر أحوال السلف فى متابعتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فليقتد بهم وليختر طريقهم.

ـ وقد روي أحمد فى مسنده من حديث عبدالله بن عمرو:

«أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسعد وهو يتوضأ، فقال: لا تسرف».. فقال: يا رسول الله أو فى الماء إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار»..

ـ وفى جامع الترمذى من حديث أبى بن كعب :

أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:

«إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء».

ـ وفى المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال:

«جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثاً ثلاثاً، وقال: «هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم».

ـ وروى مسلم فى صحيحه من حديث عثمان بن أبى العاص، قال: قلت: يا رسول الله إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى يلبسها علىَّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذاك شيطان يقال له خِنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً ، ففعلت ذلك فأذهبه الله تعالى عنى».

ـ وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .. قال: قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: «إذا وجد أحدكم فى بطنه شيئاً فأشكل عليه: أخرج منه شىء أم لا.. فلا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً».

وفى الصحيحين عن عبدالله بن زيد قال: شُكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: الرجل يخيل إليه أنه يجد الشىء فى الصلاة قال: «لا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً».

وفى المسند وسنن أبى داود عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن الشيطان يأتى أحدكم وهو فى الصلاة، فيأخذ بشعرة من دبره فيمدها فيرى أنه قد أحدث، فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً».

وفى لفظ أبى داود :

«إذا أتى الشيطان أحدكم فقال له: إنك قد أحدثت، فليقل له: كذبت، إلا ما وجد ريحاً بأنفه أو سمع صوتاً بأذنه».

ـ ومن أعظم مكايد الشيطان التى كاد بها أكثر الناس، وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته: ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور. حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله وعبدت قبورهم، واتخذت أوثاناً، وبنيت عليها الهياكل، وصورت صور أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجساداً لها ظل، ثم جعلت أصناماً، وعبدت مع الله تعالى. وكان أول هذا الداء العظيم فى قوم نوح، كما أخبر سبحانه عنهم فى كتابه حيث يقول:

"قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً، ومكروا مكراً كبارا ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيراً" .

قال غير واحد من السلف : كان هؤلاء قوماً صالحين فى قوم نوح عليه

السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور، وفتنة التماثيل. وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضى الله عنها : أن أم سلمة رضى الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة، يقال لها : مارية. فذكرت له مارأت فيها من الصور . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح ، أو الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى» .

وفى الصحيحين أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».. وفى رواية أخرى عن عائشة رضى الله عنها: (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرضه الذى لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، ولولا ذلك لأُبرز قبره غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً).

ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُرج». (رواه أحمد وأهل السنن).

ـ وفى صحيح البخارى: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى أنس بن مالك يصلى عند قبر، فقال: القبر، القبر. وهذا يدل على أنه كان من المستقر عند الصحابة رضى الله عنهم ما نهاهم عنه نبيهم من الصلاة عند القبور. وفعل أنس رضى الله عنه لا يدل على اعتقاد جوازه، فإنه لعله لم يره، أو لم

يعلم أنه قبر، أو ذهل عنه. فلما نبهه عمر رضى الله عنه تنبه.

ـ وقال أبوسعيد الخدرى: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام».

(رواه أحمد وأهل السنن الأربعة وصححه ابن حبان).

وأبلغ من هذا : أنه نهى عن الصلاة إلى القبر، فلا يكون القبر بين المصلى وبين القبلة. فروى مسلم فى صحيحه عن أبى مرثد الغنوى رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تجلسوا على القبور.. ولا تصلوا إليها».. قال أبوالوفاء بن عقيل: «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. قال: وهم عندى كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وإكرامها، بما نهى عنه الشرع: من ايقاد النيران وتقبيلها وتخليقها[1]، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاى افعل بى كذا وكذا وأخذ تربتها تبركاً، وإفاضة الطيب على القبور. وشد الرحال اليها، وإلقاء الخرق على الشجر، اقتداء بمن عبد باللات والعزى..

ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبور، وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضاداً للآخر، مناقضا له، بحيث لا يجتمعان أبداً فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها.

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد، مضاهاة لبيوت الله تعالى.

ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها. ونهى أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون

(١) التخليق : أن تدهن بالخلوق، بفتح الخاء ، الطيب .

لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور، والمتخذينها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب. مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، محادون لما جاء به وأعظم ذلك اتخاذها مساجد. وايقاد السرج عليها. وهو من الكبائر.

وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبومحمد المقدسي: ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن النبى صلى الله عليه وسلم من فعله. ولأن فيه تضييعاً للمال فى غير فائدة، وإفراطاً فى تعظيم القبور، أشبه بتعظيم الأصنام. قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر، ولأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».. يحذر ما صنعوا. (متفق عليه).

ـ ومن أعظم مكايد الشيطان: ما نصبه للناس من الأنصاب والأزلام، التى هى من عمله وقد أمر الله تعالى باجتناب ذلك، وعلق الفلاح باجتنابه، فقال تعالى: *"يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون"*.

فالأنصاب: كل ما نصب يعبد من دون الله: من حجر، أو شجر، أو وثن أو قبر، وهى جمع، ومفردها نصب.

وأما الأزلام.. فقال ابن عباس رضى الله عنهما: هى قداح كانوا يستقسمون بها الأمور، أى يطلبون بها على ما قسم لهم.

قال سعيد بن جبير: هى القدحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية فى أمورهم. أحدهما عليه مكتوب: أمرنى ربى، والآخر: نهانى ربى فإذا أرادوا أمراً ضربوا بها، فإن خرج الذى عليه «أمرنى» فعلوا ما هموا به وإن خرج الذى عليه «نهانى ربى» تركوه.

ولا فرق بين ذلك وبين قول المنجم: لا تخرج من أجل نجم كذا، واخرج من أجل طلوع نجم كذا، لأن الله تعالى يقول: *"وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا"*.

وذلك دخول فى علم الله عز وجل الذى هو غيب عنا. فهو حرام كالأزلام التى ذكرها الله تعالى.

والمقصود : أن الناس قد ابتلوا بالأنصاب والأزلام.. فالأنصاب للشرك والعبادة، والأزلام للتكهن، وطلب علم ما استأثر الله به. هذه للعلم، وتلك للعمل، ودين الله سبحانه مضاد لهذا وهذا، والذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم إبطالهما، وكسر الأنصاب والأزلام.

فمن الأنصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين: من شجرة ، أو عمود أو وثن أو قبر أو خشبة، أو عين، ونحو ذلك، والواجب هدم ذلك كله، ومحو أثره كما أمر النبى صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالأرض كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الأسدى. قال: قال لى علىٌ رضى الله عنه: «ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أن لاأدع تمثالاً إلا طمسته ولاقبراً مشرفاً إلا سويته».

تنبيه

ولا تحسب أيها المنعم عليه باتباع صراط الله المستقيم، صراط أهل نعمته ورحمته وكرامته أن النهى عن اتخاذ القبور أوثاناً وأعياداً وأنصاباً، والنهى عن اتخاذها مساجد، أو بناء المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها، والسفر اليها، والنذر لها، واستلامها، وتقبيلها وتعفير الجباة فى عرصاتها : غض من أصحابها، ولا تنقيص لهم، ولا تنقص كما يحسبه أهل الإشراك والضلال. بل ذلك من إكرامهم وتعظيمهم واحترامهم، ومتابعتهم فيما يحبونه، وتجنب ما يكرهونه. فأنت والله وليهم ومحبهم، وناصر طريقهم وسنتهم وعلى هديهم ومناهجهم. وهؤلاء المشركون أعصى الناس لهم، وأبعدهم من هديهم

ومتابعتهم كالنصارى مع المسيح، واليهود مع موسى عليهما السلام، والرافضة مع على رضى الله عنه.

فأهل الحق أولى بأهل الحق من أهل الباطل، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض.

فإن قيل : فما الذى أوقع عباد القبور فى الافتتان بها، مع العلم بأن ساكنيها أموات ، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟

قيل: أوقعهم فى ذلك أمور :

منها : الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله، بل جميع الرسل من تحقيق التوحيد وقطع أسباب الشرك، فقل نصيبهم جدا من ذلك ودعاهم الشيطان إلى الفتنة، ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته، فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل، وعصموا بقدر ما معهم من العلم .

ومنها : أحاديث مكذوبة مختلقة، وضعها أشباه عباد الأصنام من المقابرية على رسول الله صلى الله عليه وسلم تناقض دينه، وما جاء به كحديث : «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور».

وحديث : «لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه». وأمثال هذه الأحاديث التى هى مناقضة لدين الإسلام وضعها المشركون وراجت على أشباههم من الجهال الضلال .

ومنها حكايات حكيت لهم عن تلك القبور : أن فلاناً استغاث بالقبر الفلانى فى شدة فخلص منها. وفلاناً دعاه أو دعا به فى حاجة فقضيت له. وفلاناً نزل به ضر فاسترجى صاحب ذلك القبر فكشف ضره وعند السدنة والمقابرية من ذلك شىء كثير يطول ذكره. وهم من أكذب خلق الله تعالى على الأحياء والأموات. والنفوس مولعة بقضاء حوائجها، وإزالة ضروراتها ويسمع بأن قبر فلان ترياق مجرب. والشيطان له تلطف فى الدعوة فيدعوهم أولاً إلى

الدعاء عنده، فيدعو العبد عنده بحرقة وانكسار وذلة، فيجيب الله دعوته لما قام بقلبه، لا لأجل القبر. فإنه لو دعاه كذلك فى الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيراً فى إجابة تلك الدعوة : والله سبحانه يجيب دعوة المضطر، ولو كان كافراً وقد قال الله تعالى :

"أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض" .

وقال تعالى :

"كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً" .

وقد قال الخليل كما حكى الله تعالى :

"وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر" .

فقال الله سبحانه وتعالى :

"ومن كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير" .

فليس كل من أجاب الله دعاءه يكون راضياً عنه، ولا محباً له، ولا راضياً بفعله فإنه سبحانه يجيب البر والفاجر، والمؤمن والكافر...

والمقصود : أن الشيطان بلطف كيده يحسّن الدعاء عند القبر، وأنه أرجح منه فى بيته ومسجده وأوقات الأسحار. فإذا تقرر ذلك عنده نقله إلى درجة أخرى، من الدعاء عنده إلى الدعاء به، والإقسام على الله به، وهذا أعظم من الذى قبله، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه، أو يسأل بأحد من خلقه وقد أنكر أئمة الإسلام ذلك.

فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على الله به ، والدعاء به أبلغ فى تعظيمه واحترامه ، وأنجح فى قضاء حاجته ، نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله . ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وثنا يعكف عليه ويوقد عليه القنديل ويعلق عليه الستور ، ويبنى عليه المسجد ، ويعبده بالسجود له ، والطواف به وتقبيله واستلامه والحج إليه والذبح عنده

ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته ، واتخاذه عيدا ومنسكا وأن ذلك أنفع لهم فى دنياهم وآخرتهم .

زيارة الموحدين للقبور

أما زيارة الموحدين : فمقصودها ثلاثة أشياء :

أحدها : تذكر الآخرة والاعتبار والاتعاظ . وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بقوله : « زوروا القبور ، فإنها تذكركم الآخرة » .

الثانى : الإحسان إلى الميت ، وأن لا يطول عهده به، فيهجره ويتناساه، كما إذا ترك زيارة الحى مدة طويلة تناساه ؛ فإذا زاره وأهدى إليه هدية : من دعاء، أو صدقة، أو أهدى قربة، ازداد بذلك سروره وفرحه، كما يسر الحى بمن يزوره ويهدى له .. ولذلك شرع النبى صلى الله عليه وسلم للزائرين أن يدعوا لأهل القبور بالمغفرة والرحمة، وسؤال العافية فقط. ولم يشرع أن يدعوهم، ولا أن يدعوا بهم ، ولا يصلى عندهم.

الثالث : إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيحسن إلى نفسه وإلى المزور .

ومن مكايد عدو الله ومصايده : سماع الغناء.

ومن مكايد عدو الله ومصايده ، التى كاد بها من قلَّ نصيبه من العلم والعقل والدين وصادبها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة الذى يصد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان. فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنا ، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى. كاد به الشيطان النفوس المبطلة وحسنه لها مكراً منه وغروراً. وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجورا.

فلو رأيتهم عند ذاك السماع وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم

الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان، وتكسروا فى حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟ ويحق لهم ذلك، وقد خالط خمارة النفوس، ففعل فيها أعظم ما يفعله حُمَّيا الكؤوس. فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق، وأثواب تشقق. وأموال فى غير طاعة الله تنفق ...

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض وتحذر من سلوك سبيلهم واقتفاء آثارهم من جميع طوائف الملة.

قال الإمام أبوبكر الطرطوشى فى خطبة كتابه، فى تحريم السماع[1]:

«الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين، ونسأله أن يرينا الحق حقا فنتبعه، والباطل باطلاً فنجتنبه، وقد كان الناس فيما مضى يستسر أحدهم بالمعصية إذا واقعها، ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها، ثم كثر الجهل وقل العلم، وتناقص الأمر حتى صار أحدهم يأتى المعصية جهاراً، ثم ازداد الأمر إدباراً، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين، وفقنا الله وإياهم، استزلهم الشيطان واستغوى عقولهم فى حق الأغانى واللهو وسماع الطقطقة والنقير واعتقدته من الدين الذى يقربهم إلى الله وجاهرت به جماعة المسلمين وشاقت سبيل المؤمنين وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين. *"ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا"* . فرأيت أن أوضح الحق وأكشف عن شبه أهل الباطل بالحجج التى تضمنها كتاب الله وسنة رسوله. وأبدأ بذكر أقاويل العلماء التى تدور الفتيا عليهم فى أقاصى الأرض ودانيها حتى تعلم هذه الطائفة أنها قد خالفت علماء المسلمين فى بدعتها، والله ولى التوفيق.

ثم قال: أما الإمام مالك فإنه قد نهى عن الغناء، وعن استماعه وقال: إذا

---

(١) المراد : الأغانى .

اشترى جارية فوجدها مغنية كان له أن يردها بالعيب.

وسئل مالك رحمه الله عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء؟ فقال: إنما يفعله عندنا الفساق.

قال: وأما أبوحنيفة : فإنه يكره الغناء، ويجعله من الذنوب. قلت: مذهب أبى حنيفة فى ذلك من أشد المذاهب، وقوله فيه أغلظ الأقوال وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهى كلها كالمزمار، والدف، حتى الضرب بالقضيب، وصرحوا بأنه معصية يوجب الفسق وترد به الشهادة، وأبلغ من ذلك أنهم قالوا: إن السماع فسق، والتلذذ به كفر، هذا لفظهم..

قالوا : ويجب عليه أن يجتهد فى أن لا يسمعه إذا مر به أو كان فى جواره. وأما الشافعى .. فقال فى كتاب «أدب القضاء» : ان الغناء لهو مكروه يشبه الباطل والمحال . ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته.

وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه، وأنكروا على من نسب إليه حله كالقاضى أبى الطيب الطبرى، والشيخ أبى اسحاق، وابن الصباغ.

قال الشيخ أبواسحاق فى التنبيه : ولا تصح، يعنى الإجاره، على منفعة محرمة كالغناء والزمر وحمل الخمر. ولم يذكر فيه خلافاً.

وقال فى المذهب : ولا يجوز على المنافع المحرمة، لأنه محرم، فلا يجوز أخذ العوض عنه كالميتة والدم.

فقد تضمن كلام الشيخ أموراً ..

أحدها : أن منفعة الغناء بمجرده منفعة محرمة .

الثانى : أن الاستئجار عليها باطل .

الثالث : أنه لا يجوز للرجل به أكل مال بالباطل بمنزلة أكله عوضا عن الميتة والدم .

الرابع : أنه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغنى، ويحرم عليه ذلك، فإنه بذل

ماله فى مقابلة محرم، وأن بذله فى ذلك كبذله فى مقابلة الدم والميتـة.

الخامس : أن الزمر حرام .

وإذا كان الزمر، الذى هو أخف آلات اللهو حراماً، فكيف بما هو أشد منه؟ كالعود، والطنبور، واليداع. ولا ينبغى لمن شم رائحة العلم أن يتوقف فى تحريم ذلك..

وأما مذهب الإمام أحمد فقال عبدالله ابنه : سألت أبى عن الغناء ؟ فقال : الغناء ينبت النفاق فى القلب، لا يعجبنى.. ثم ذكر قول مالك : إنما يفعله عندنا الفساق.. ومضى على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها.

ونص فى أيتام ورثوا جارية مغنية وأرادوا بيعها فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة.. فقالوا: إذا بيعت مغنية ساوت عشرين ألفاً، وإذا بيعت ساذجة لا تساوى ألفين، فقال: لا تباع إلا على أنها ساذجة.

ولو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الأيتام.

وأما سماعه من المرأة الأجنبية أو الأمرد فمن أعظم المحرمات وأشدها فسادا للدين.

قال الشافعى رحمه الله : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته. وأغلظ القول فيه. وقال : هو دياثـة، فمن فعل ذلك كان ديوثاً. قال القاضى أبو الطيب : وإنما جعل صاحبها سفيهاً لأنه دعا الناس إلى الباطل، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً فاسقاً.

ثم قال ابن القيم :

هذا السماع الشيطانى المضاد للسماع الرحمانى له فى الشرع بضعة عشر اسما: اللهو، واللغو، والباطل، والزور، والمكاء ، والتصدية، ورقية الزنا ، وقرآن الشيطان، ومنبت النفاق فى القلب، والصوت الأحمق، والصوت الفاجر،

وصوت الشيطان، ومزمور الشيطان، والسمود.

أسماؤه دلت على أوصافه
تبّاً لذى الأسماء والأوصاف

فنذكر مخازى هذه الأسماء، ووقوعها عليه فى كلام الله وكلام رسوله والصحابة ليعلم أصحابه وأهله بما به ظفروا، وأى تجارة رابحة خسروا :

فدع صاحب المزمار ، والدف ، والغنا
وما اختاره عن طاعة الله مذهبا
ودعه يعشْ فى غيِّه وضلاله
على تاتنا يحيا ويبعث أشيبا
وفى تندنا يوم المعاد نجاته
إلى الجنة الحمراء ، يُدعى مقرَّبا
سيعلم يوم العرض أى بضاعة
أضاع ، وعند الوزن ما خفَّ أو ربا
ويعلم ما قد كان فيه حياته
إذا حصلت أعماله كلُّها هبا
دعاه الهدى والغىُّ من ذا يجيبه ؟
فقال لداعى الغىِّ : أهلاً ومرحباً
وأعرض عن داعى الهدى ، قائلاً له :
هواى إلى صوت المعازف قد صبا

****

فالإسم الأول : اللهو ، ولهو الحديث :

قال تعالى : *"ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى*

مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم" .

قال الواحدى وغيره : أكُثر المفسرين : على أن المراد بلهو الحديث : الغناء. وروى ثور بن أبى فاختة عن أبيه عن ابن عباس فى قوله تعالى:

"ومن الناس من يشترى لهو الحديث" قال : «هو الرجل يشترى الجارية تغنيه ليلاً ونهاراً» .

وقال مجاهد : هو اشتراء المغنى والمغنية بالمال الكثير، والاستماع اليه وإلى مثله من الباطل ...

قال الواحدى : وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء، ثم ذكر كلام الشافعى فى رد الشهادة بإعلان الغناء .

قال : وأما غناء القينات فذلك أشد ما فى الباب، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه وهو ما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من استمع إلى قينة صُب فى أذنيه الآنك يوم القيامة».. والآنك : الرصاص المذاب .

ولا تعارض بين تفسير «لهو الحديث» بالغناء، وتفسيره بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم، ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة، يشغلهم به عن القرآن، فكلاهما لهو الحديث ولهذا قال ابن عباس : لهو الحديث : الباطل والغناء ...

الإسمان الثانى والثالث : الزور ، واللغو :

قال تعالى : *"والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً"* .

قال محمد بن الحنفية : الزور ههنا الغناء . وقال ليث عن مجاهد : وقال الكلبى : لا يحضرون مجالس الباطل .

وقال الزجاج : لا يجالسون أهل المعاصى، ولا يمالئونهم عليها ، ومروا مر الكرام الذين لا يرضون اللغو، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه والاختلاط بأهله. ولم يقل سبحانه : بالزور لأن (يشهدون) بمعنى يحضرون.

فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلم به وفعله ؟ والغناء من أعظم الزور .

والزور : يقال على الكلام الباطل ، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها كما فى حديث معاوية لما أخذ خصلة من شعر يوصل به، فقال : «هذا الزور» .. فالزور : القول، والفعل ، والمحل.

الإسم الرابع : الباطل.

والباطل ضد الحق .

قال ابن دهب : أخبرنى سليمان بن بلال عن كثير بن زيد انه سمع عبيد الله يقول للقاسم بن محمد : كيف ترى فى الغناد ؟ فقال له القاسم : هو باطل، فقال : قد عرفت انه باطل ، فكيف ترى فيه ؟ فقال القاسم : أرأيت الباطل، أين هو ؟ قال : فى النار، قال: فهو ذاك.

وقال رجل لابن عباس رضى الله عنهما: ما تقول فى الغناء، أحلال هو أم حرام؟.. فقال : لا أقول حراماً إلا ما فى كتاب الله. فقال : أفحلال هو؟ فقال : ولا أقول ذلك. ثم قال له : أرأيت الحق والباطل إذا جاء يوم القيامة: فأين يكون الغناء؟ فقال الرجل : يكون مع الباطل، فقال له ابن عباس، اذهب فقد أفتيت نفسك.

قال ابن القيم : فهذا جواب ابن عباس رضى الله عنهما عن غناء الأعراب، الذى ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط والتشبيب بالأجنبيات وأصوات المعازف، والآلات المطربات، فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك، ولو شاهدوا هذا الغناء لقالوا فيه أعظم قول، فإن مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير وأعظم من فتنته.

فمن أبطل الباطل أن تأتى شريعة بإباحته، فمن قاس هذا على غناء القوم فقياسه من جنس قياس الربا على البيع والمتية على المذكاة..

وأما إسم المكاء والتصدية :

فقال تعالى عن الكفار: *"وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية"* .

قال ابن عباس، وابن عمر، وعطية، ومجاهد وغير واحد : المكاء : الصفير والتصدية : التصفيق ..

قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة، ويصفرون ويصفقون .

والمقصود : أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء ولو أنه مجرد الشبه الظاهر. فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم وإن لم يتشهبوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم.

والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً ؟

وأما تسميته : رقية الزنى .. فهو اسم موافق لمسماه ، ولفظ مطابق لمعناه، فليس في رقى الزنى أنجع منه، وهذه التسمية معروفة عن الفضيل بن عياض.

قال ابن أبي الدنيا : وأخبرني محمد بن الفضل الأزدي قال: نزل الحطيئة برجل من العرب ومعه ابنته مليكة، فلما جنه الليل سمع غناء . فقال لصاحب المنزل: كف هذا عني، فقال : وما تكره من ذلك ؟ فقال: إن الغناء رائد من رادة الفجور، ولا أحب أن تسمعه هذه، يعني ابنته، فإن كففته وإلا خرجت عنك. ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء، كما يجنبهن أسباب الريب . ومن طرق أهله إلى سماع رقية الزنا فهو أعلم بالإثم الذي يستحقه.

ومن الأمر المعلوم عند القوم أن المرأة إذا استصعبت على الرجل اجتهد أن يسمعها صوت الغناء فحينئذ تعطي الليان.

وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جداً. فإذا كان الصوت بالغناء،

صار انفعالها من وجهين : من جهة الصوت، ومن جهة معناه.

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدف والشبابة، والرقص بالتخنث والتكسر، فلو حبلت المرأة من غناء لحبلت من هذا الغناء .

فلعمر الله ، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا. وكم من حر أصبح به عبداً للصبيان أو الصبايا ، وكم من غيور تبدل به اسماً قبيحاً بين البرايا وكم من ذى غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطارف والحشايا. وكم من معافى تعرض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا ..

وأما تسميته : منبت النفاق ..

فقال على بن الجعد بسنده عن ابن مسعودرضى الله تعالى عنه . قال: «الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع».

فإن قيل : فما وجه إنباته للنفاق فى القلب من بين سائر المعاصى قيل: هذا من أدل شيء على فقه الصحابة فى أحوال القلوب وأعمالها ومعرفتهم بأدويتها وأدوائها ، وأنهم هم أطباء القلوب، دون المنحرفين عن طريقتهم الذين داووا أمراض القلوب بأعظم أدوائها فكانوا كالمداوى من السقم بالسم القاتل.. فاتفق قلة الأطباء وكثرة المرضى، وقام كل جهول يطبب الناس.

فاعلم ان للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق ونباته فيها كنبات الزرع بالماء.

فمن خواصه : أنه يلهى القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره، والعمل بما فيه، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان فى القلب أبداً لما بينهما من التضاد ، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة، ومجانبة شهوات النفس، وأسباب الغى، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله ويحسنه، ويهيج النفوس إلى شهوات الغى فيثير كامنها ويزعج قاطنها، ويحركها الى كل قبيح، ويسوقها إلى كل مليحة ومليح. فهو والخمر رضيعا

لبان، وفى تهييجهما على القبائح فرسا رهان. فإنه صنو الخمر ورضيعه ونائبه وحليفه وخدينه وصديقه. عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذى لا يفسخ وأحكم بينهما شريعة الوفاء التى لا تنسخ. وهو جاسوس القلب، وسارق المروءة، وسوس العقل ، يتغلغل فى مكامن القلوب ويطلع على سرائر الأفئدة ويدب إلى محل التخيل. فيثير ما فيه من الهوى والشهوة والسخافة والرقاعة والرعونة والحماقة .

فبينما ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل وبهجة الإيمان ووقار الإسلام وحلاوة القرآن. فإذا استمع الغناء ومال إليه نقص عقله وقل حياؤه وذهبت مروءته وفارقه بهاؤه وتخلى عنه وقاره. وفرح به شيطانه، وشكا إلى الله تعالى إيمانه، وثقل عليه قرآنه وقال : يارب لا تجمع بينى وبين قرآن عدوك[1] فى صدر واحد. فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه، وأبدى من سره ما كان يكتمه، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب، والزهزهة والفرقعة بالأصابع، فيميل برأسه ويهز منكبيه ويضرب الأرض برجليه ويدق على أم رأسه بيديه ويثب وثبات الذباب، ويدور دوران الحمار حول الدولاب، ويصفق بيديه تصفيق النسوان، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران، وتارة يتأوه تأوه الحزين، وتارة يزعق زعقات المجانين.

وقال بعض العارفين : السماع يورث النفاق فى قوم، والعناد فى قوم، والكذب فى قوم، والفجور فى قوم، والرعونة فى قوم. وأكثر ما يورث عشق الصور، واستحسان الفواحش. وإدمانه يثقل القرآن على القلب ويكرهه إلى سماعه بالخاصية وإن لم يكن هذا نفاقاً فما للنفاق حقيقة.

وأما تسميته قرآن الشيطان .. فمأثور عن التابعين ، وقد روى فى حديث مرفوع.

قال قتادة : لما أهبط إبليس قال : يارب لعنتنى ، فما عملى؟ قال:

---

(١) المقصود بها قرآن عدوه إبليس وهو الغناء والموسيقى .

السحر. قال : فما قرآنى ؟ قال : الشعر. قال : فما كتابى ؟ قال : الوشم، قال : فما طعامى ؟ قال : كل ميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه، قال : فما شرابى؟ قال : كل مسكر. قال : فأين مسكنى ؟ قال : الأسواق. قال : فما صوتى؟ قال : المزامير، قال : فما مصايدى؟ قال : النساء .

ولما أراد عدو الله أن يجمع عليه نفوس المبطلين قرنه بما يزينه من الألحان المطربة وآلات الملاهى والمعازف، وأن يكون من امرأة جميلة أو صبى جميل، ليكون ذلك أدعى إلى قبول النفوس لقرآنه وتعوضها به عن القرآن المجيد .

وأما تسميته بالصوت الأحمق ، والصوت الفاجر .

فهى تسمية الصادق المصدق، الذى لا ينطق عن الهوى.

فروى الترمذى عن جابر رضى الله عنه قال :

«خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبدالرحمن بن عوف إلى النخل، فإذا ابنه ابراهيم يجود بنفسه فوضعه فى حجره ففاضت عيناه، فقال عبدالرحمن: أتبكى وأنت تنهى الناس ؟ قال : إنى لم أنه عن البكاء، وإنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة لهوٍ ولعب، ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة : خمس وجوه، وشق جيوب، ورنة».. الحديث. (قال الترمذى : هذا حديث حسن).

فانظر إلى هذا النهى المؤكد بتسميته صوت الغناء صوتاً أحمق ولم يقتصر على ذلك حتى وصفه بالفجور. ولم يقتصر على ذلك حتى سماه من مزامير الشيطان..

فكيف يستجيز العارف إباحة ما نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسماه صوتاً أحمق فاجراً ، ومزمور الشيطان، وجعله والنياحة التى لعن فاعلها أخوين ؟ وأخرج النهى عنهما مخرجاً واحداً، ووصفهما بالحمق والفجور وصفاً واحداً.

وقال الحسن : صوتان ملعونان : مزمار عند نغمة، ورنة عند مصيبة..
وأما تسميته صوت الشيطان ..

فقد قال الله تعالى للشيطان وحزبه: *"اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا"*.

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره : عن ابن عباس *"واستفزز من استطعتك منهم بصوتك"*.. قال : كل داع إلى معصية.

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعى إلى المعصية، ولهذا فسر صوت الشيطان به. قال ابن أبى حاتم عن مجاهد: *"واستفزز من استطعت منهم بصوتك"* . قال : استزل منهم من استطعت. قال : وصوته الغناء.. والباطل.

وهذه الإضافة إضافة تخصيص، كما أن إضافة الخيل والرجل اليه كذلك، فكل متكلم بغير طاعة الله، ومصوت بيراع أو مزمار، أو دف حرام، أو طبل، فذلك صوت الشيطان. وكل ساع فى معصية الله على قدميه فهو من رجله، وكل راكب فى معصية الله فهو من خيالته. كذلك قال السلف : كما ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : رجله كل رجل مشت فى معصية الله.

وقال قتادة : إن له خيلاً ورجلاً من الجن والإنس.
وأما تسميته مزمور الشيطان ..

ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : «دخل علىَّ النبى صلى الله عليه وسلم وعندى جاريتان تغنيان بغناء بُعاث، فاضطجع على الفراش وحوَّل وجهه. ودخل أبوبكر رضى الله عنه، فانتهرنى. وقال : مزمار الشيطان عند النبى صلى الله عليه وسلم ؟.. فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دعهما ، فلما غفل غمزتهما فخرجتا ».

فلم ينكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى بكر تسميه الغناء مزمار الشيطان وأقرهما لأنهما جاريتان غير مكلفتين تغنيان بغناء الأعراب الذى قيل فى يوم حرب بعاث من الشجاعة والحرب، وكان اليوم يوم عيد.

فتوسع حزب الشيطان فى ذلك إلى صوت امرأة جميلة أجنبية، أو صبى أمرد صوته فتنة، وصورته فتنة، يغنى بما يدعو إلى الزنى والفجور وشرب الخمور، مع آلات اللهو التى حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدة أحاديث، مع التصفيق والرقص وتلك الهيئة المنكرة التى لا يستحلها أحد من أهل الأديان، فضلاً عن أهل العلم والإيمان، ويحتجون بغناء جويريتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب ونحوه فى الشجاعة ونحوها فى يوم عيد بغير شبابة ولا دف، ولا رقص ولا تصفيق، ويدعون المحكم الصريح لهذا المتشابه وهذا شأن كل مبطل .

نعم ، نحن لا نحرم ولا نكره مثل ما كان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك الوجه، وإنما نحرم نحن وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك كله وبالله التوفيق .

وأما تسميته بالسمود :

فقد قال تعالى : *"أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون"* .

قال عكرمة عن ابن عباس : السمود : الغناء فى لغة حمير. يقال : اسمُدى لنا أى غنى لنا .

وقال عكرمة : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ، فنزلت هذه الآية.

وهذا لا يناقض ما قيل فى هذه الآية من أن السمود الغفلة والسهو عن الشيء. وقال ابن الأنباري : السامد اللاهى، والسامد الساهى، والسامد المتكبر، والسامد القائم.

فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه.

فهذه أربعة عشر اسماً سوى اسم الغناء.

تحريم رسول الله صلى الله عليه وسلم لآلات اللهو والمعازف

أخرج البخارى من حديث عبدالرحمن بن غنم قال: حدثنى أبوعامر أو أبومالك الأشعرى رضى الله عنهما انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «ليكونن من أمتى قوم يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف».

(والحِرَ : الفرج).

ووجه الدلالة منه : أن المعازف هى آلات اللهو كلها ، لا خلاف بين أهل اللغة فى ذلك ولو كانت حلالاً لما ذمهم على استحلالها ولما قرن استحلالها باستحلال الخمر والفروج الحرام والحرير.

وقال ابن ماجه فى سننه :

عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليشربن ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ، يعزف على رءوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم قردة وخنازير».

قال ابن القيم : واسناد ابن ماجه إسناد صحيح .

ـ ومن مكايد الشيطان التى بلغ فيها مراده : مكيدة التحليل ، الذى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعله وشبهه بالتيس المستعار، وعظم بسببه العار والشنار، وعير المسلمين به الكفار، وحصل بسببه من الفساد مالا

يحصيه إلا رب العباد، واستكريت له التيوس المستعارات، وضاقت به ذرعاً النفوس الأبيَّات، ونفرت منه أشد من نفارها من السفاح، وقالت: لو كان هذا نكاحاً صحيحاً لم يلعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بما شرعه من النكاح، فالنكاح سنته، وفاعل السنة مقرب غير ملعون والمحلل مع وقوع اللعنة عليه بالتيس المستعار مقرون. فقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتيس المستعار، وسماه السلف بمسمار النار.

فلو شاهدت الحرائر المصونات على حوانيت المحللين متبذلات، تنظر المرأة إلى التيس نظر الشاة إلى شفرة الجازر، وتقول: يا ليتنى قبل هذا كنت من أهل المقابر، حتى إذا تشارطا على ما يجلب اللعنة والمقت، نهض واستتبعها خلفه للوقت بلا زفاف ولا إعلان، بل بالتخفى والكتمان فلا جهاز ينقل، ولا فراش إلى بيت الزوج يحوّل، ولا صواحب يهدينها اليه، ولا مصلحات يجلينها عليه، ولا مهر مقبوض ولا مؤخر ولا نفقة ولا كسوة تقدر، ولا وليمة ولا نثار، ولا دف ولا إعلان ولا شعار والزوج يبذل المهر وهذا التيس يطأ بالأجر، حتى إذا خلا بها وأرخى الحجاب، والمطلق والولى واقفان على الباب، دنا ليطهرها بمائه النجس الحرام، ويطيبها بلعنة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم حتى إذا قضيا عرس التحليل، ولم يحصل بينهما المودة والرحمة التى ذكرها الله تعالى فى التنزيل. فإنها لا تحصل باللعن الصريح، ولا يوجبها إلا النكاح الجائز الصحيح...

وكثير من هؤلاء المستأجرين للضراب يحلل الأم وابنتها فى عقدين ويجمع ماءه فى أكثر من أربع وفى رحم أختين. وإذا كان هذا من شأنه وصفته، فهو حقيق بما رواه عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلّل والمحلّل له».. (رواه الحاكم فى الصحيح والترمذى وقال: حديث حسن صحيح).

قال الترمذى : والعمل عليه عند أهل العلم، منهم عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان.. وعبدالله بن عمر رضى الله عنهم وهو قول الفقهاء من التابعين. وأخرج ابن ماجه بإسناد صحيح. عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: هو المُحلِّل، لعن الله المحلل والمحلل له».

ـــ ومن مكايد الشيطان التى كاد بها الإسلام وأهله : الحيل والمكر والخداع. الذى يتضمن تحليل ما حرم الله، واسقاط ما فرضه، ومضادته فى أمره ونهيه ، وهى من الرأى الباطل الذى اتفق السلف على ذمه.

فإن الرأى رأيان : رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار وهو الذى اعتبره السلف، وعملوا به.

ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار، فهو الذى ذموه وأنكروه. وكذلك التحليل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به وترك ما نهى عنه والتخلص من الحرام، وتخليص الحق من الظالم المانع له، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه. ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالماً، والظالم مظلوماً، والحق باطلاً والباطل حقاً، فهذا النوع الذى اتفق السلف على ذمه، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض.

عن جابر بن عبدالله : انه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول:

«إن الله حرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»، فقيل : يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال «لا، هو حرام».. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: «قاتل الله اليهود، ان الله لما حرَّم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه».. رواه البخارى.

قال الخطابى : «جملوه» معناه : أذابوها حتى تصير ودكاً فيزول عنها اسم الشحم. ثم قال : فى هذا الحديث بطلان كل حيلة يحتال بها المتوصل إلى المحرم وأنه لا يتغير حكمه بتغير هيئاته وتبديل اسمه، وقد مثلت حيلة أصحاب الشحوم بمن قيل له: لا تقرب مال اليتيم، فباعه وأخذ ثمنه فأكله وقال: لم آكل نفس مال اليتيم. أو اشترى شيئاً فى ذمته ونقده وقال: هذا قد ملكته وصار عوضاً ديناً فى ذمتى فإنما أكلت ما هو ملكى ظاهراً وباطناً.

قال ابن القيم : ولولا أن اللـه سبحانه رحم هذه الأمة بأن نبيها نبههم على ما لعنت به اليهود ، وكان السابقون منها فقهاء أتقياء، علموا مقصود الشارع، فاستقرت الشريعة بتحريم المحرمات: من الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها وإن تبدلت صورها ، وبتحريم أثمانها ، لطرّق الشيطان لأهل الحيل ما طرق لهم فى الأثمان ونحوها. إذ البابان باب واحد على ما لا يخفى..

ثم قال ـ رحمه الله ـ : إن باب الحيل المحرمة مداره على تسمية الشىء بغير اسمه، على تغيير صورته مع بقاء حقيقته فمداره على تغيير الإسم مع بقاء المسمى وتغيير الصورة مع بقاء الحقيقة. فإن المحلل مثلاً غير اسم التحليل إلى اسم النكاح، واسم المحلل إلى الزوج، وغير مسمى التحليل بأن جعل صورته صورة النكاح، والحقيقة حقيقة التحليل.

وكذلك المفسدة العظيمة التى اشتمل عليها الربا لا تزول بتغير اسمه من الربا إلى المعاملة ولا بتغيير صورته من صورة إلى صورة، والحقيقة معلومة متفق عليها بينهما قبل العقد يعلمها من قلوبهما عالم السرائر، فقد اتفقا على حقيقة الربا الصريح قبل العقد، ثم غيرا اسمه إلى المعاملة، وصورته إلى التبايع الذى لا قصد لهما فيه البتة وإنما هو حيلة ومكر ومخادعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

وأى فرق بين هذا وبين ما فعلته اليهود من استحلال ما حرم الله عليهم من

الشحوم بتغير اسمه وصورته؟ فإنهم أذابوه حتى صار ودكاً وباعوه وأكلوا ثمنه وقالوا: إنما أكلنا الثمن، لا المثمن فلم نأكل شحماً.

وكذلك من استحل الخمر باسم النبيذ كما فى الحديث الصحيح قال صلى الله عليه وسلم: «ليشربن ناس من أمتى الخمر، يسمونها بغير اسمها، يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير» .

وإنما أتى هؤلاء من حيث استحلوا المحرمات بما ظنوه من انتفاء الإسم، ولم يلتفتوا إلى وجود المعنى المحرم وثبوته، وهذا بعينه هو شبهة اليهود فى استحلال بيع الشحم بعد جمله، واستحلال أخذ الحيتان يوم الأحد بما أوقعوها به يوم السبت فى الحفائر والشباك من فعلهم يوم الجمعة وقالوا: ليس هذا صيد يوم السبت، ولا استباحة لنفس الشحم بل الذى يستحل الشراب المسكر، زاعماً أنه ليس خمراً مع علمه أن معناه معنى الخمر ومقصوده مقصوده ،عمله عمله أفسد تأويلاً. فإن الخمر اسم لكل شراب مسكر كما دلت عليه النصوص الصحيحة الصريحة وقد جاء هذا الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم من وجوه أخرى :

منها : ما رواه النسائى عنه صلى الله عليه وسلم «يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها » واسناده صحيح.

ومنها : مارواه ابن ماجه عن عبادة بن الصامت يرفعه «يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها » .

ومنها ما رواه ابن ماجه عن أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تذهب الليالى والأيام حتى تشرب طائفة من أمتى الخمر يسونها بغير اسمها ».

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أن طائفة من أمته تستحل الربا باسم البيع

كما أخبر عن استحلالهم الخمر باسم آخر.

فروى ابن بطة بإسناده عن الأوزاعى عن النبى صلى الله عليه وسلم: «يأتى على الناس زمان يستحلون الربا بالبيــع».

ومن المعلوم أن الربا لم يحرم لمجرد صورته ولفظه، وانما حرم لحقيقته ومعناه ومقصوده، وتلك الحقيقة والمعنى والمقصود قائمة فى الحيل الربوية كقيامها فى صريحة سواء، والمتعاقدان يعلمان ذلك من أنفسهما ويعلمه من شاهد حالهما، والله يعلم أن قصدهما نفس الربا، وإنما توسلا إليه بعقد غير مقصود وسمياه باسم مستعار غير اسمه ومعلوم أن هذا لا يدفع التحريم ولا يرفع المفسدة التى حرم الربا لأجلها، بل يزيدها قوة وتأكيداً من وجوه عديدة.

منها : أنه يقوم على مطالبة الغريم المحتاج بقوة لا يقوم بمثلها المربى صريحاً، لأنه واثق بصورة العقد واسمه.

ومنها : اعتقاده ان ذلك تجارة حاضرة مدارة. والنفوس أرغب شىء فى التجارة فهو فى ذلك بمنزلة من أحب امرأة حباً شديداً ويمنعه من وصالها كونها محرمة عليه. فاحتال إلى أن أوقع بينه وبينها صورة عقد لا حقيقة له، يأمن به من بشاعة الحرام وشناعته فصار يأتيها آمناً. وهما يعلمان فى الباطن انها ليست زوجته، وإنما أظهرا صورة عقد يتوصلان بها إلى الغرض.

ومن المعلوم أن هذا يزيد المفسدة التى حرم الحكيم الخبير لأجلها الربا والزنى والخمر فإن الله سبحانه وتعالى حرم الربا لما فيه من ضرر المحتاج وتعريضه للفقر الدائم . والدين اللازم الذى لا ينفك عنه. وتولد ذلك وزيادته إلى غاية تجتاحه وتسلبه متاعه وأثاثه كما هو الواقع فى الواقع. فالربا أخو القمار الذى يجعل المقمور سليباً حزيناً محسوراً.

فالله سبحانه وتعالى إنما حرم هذه المحرمات وغيرها لما اشتملت عليه من المفاسد المضرة بالدنيا والدين، ولم يحرمها لأجل أسمائها وصورها. ومعلوم أن

تلك المفاسد تابعة لحقائقها، لا تزول بتبدل أسمائها وتغيير صورتها ولو زالت تلك المفاسد بتغيير الصورة والأسماء لما لعن الله سبحانه اليهود على تغيير صورة الشحم واسمه بإذابته حتى استحدثوا اسم الودك وصورته ثم أكلوا ثمنه وقالوا لم نأكله. وكذلك تغيير صورة الصيد يوم السبت بالصيد يوم الأحد. فتغير صور المحرمات وأسمائها مع بقاء مقاصدها وحقائقها زيادة فى المفسدة التى حرمت لأجلها، مع تضمنه لمخادعة الله تعالى ورسوله، ونسبة المكر والخداع والغش والنفاق إلى شرعه ودينه، وأنه يحرم الشيء لمفسدة ويبيحه لأعظم منها. ولهذا قال أيوب السختيانى : يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان لو أتوا الأمر على وجهه كان أهون.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل».

وذكر لأحمد بن حنبل : ان امرأة كانت تريد أن تفارق زوجها، فيأبى عليها فقال لها بعض أرباب الحيل : لو ارتددت عن الإسلام بنت منه ففعلت، فغضب أحمد ـ رحمه الله ـ وقال : من أفتى بهذا أو علّمه، أو رضى به فهو كافر.

وكذلك قال عبدالله بن المبارك ثم قال: ما أرى الشيطان يحسن مثل هذا حتى جاء هؤلاء فتعلمه منهم.

وقال يزيد بن هارون : أفتى أصحاب الحيل بشيء لو أفتى به اليهود والنصارى كان قبيحاً. أفتوا رجلاً حلف أن لا يطلق امرأته بوجه من الوجوه فبذلت له مالاً كثيراً فى طلاقها، فأفتوه بأن يُقبل أمها أو يباشرها..

ـ ومن مكايد الشيطان ومصايده : ما فتن به عشاق الصور.

وتلك لعمر الله الفتنة الكبرى والبلية العظمى التى استعبدت النفوس لغير خلاّقها وملكت القلوب لمن يسومها الهوان من عشاقها، وألقت الحرب بين العشق والتوحيد، ودعت إلى موالاة كل شيطان مريد. فصيرت القلب للهوى

أسيراً. وجعلته عليه حاكماً وأميراً فأوسعت القلوب محنة. وملأتها فتنة، وحالت بينها وبين رشدها. وصرفتها عن طريق قصدها. ونادت عليها فى سوق الرقيق فباعتها بأبخس الأثمان، وأعاضتها بأخس الحظوظ وأدنى المطالب عن العالى من غرف الجنان، فضلاً عما هو فوق ذلك من القرب من الرحمن، فسكنت الى ذلك المحبوب الخسيس، الذى ألمها به أضعاف لذتها، ونيله والوصول إليه أكبر أسباب مضرتها، فما أوشكه حبيباً يستحيل عدواً عن قريب. ويتبرأ منه محبه لو أمكنه حتى كأن لم يكن له بحبيب. وإن تمتع به فى هذه الدار فسوف يجد به أعظم الألم بعد حين. لاسيما إذا صار الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدواً إلا المتقين.

المحبة النافعة والمحبة الضارة

المحبة النافعة ثلاثة أنواع : محبة الله ومحبة فى الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته.

والمحبة الضارة ثلاثة أنواع : المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله تعالى، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله تعالى أو تنقصها.

فهذه ستة أنواع، عليها مدار محاب الخلق.

فمحبة الله عز وجل أصل المحاب المحمودة، وأصل الإيمان والتوحيد، والنوعان الآخران تبع لها.

والمحبة مع الله أصل الشرك والمحاب المذمومة، والنوعان الآخران تبع لها.

ومحبة الصور المحرمة وعشقها من موجبات الشرك، وكلما كان العبد أقرب إلى الشرك وأبعد من الإخلاص كانت محبته بعشق الصور أشد، وكلما كان أكثر إخلاصاً وأشد توحيداً، كان أبعد عن عشق الصور، ولهذا أصاب امرأة

العزيز ما أصابها من العشق، لشركها، ونجا منه يوسف الصديق عليه السلام بإخلاصه، قال تعالى:

"كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين".

فالسوء : العشق، والفحشاء : الزنا. فالمخلص قد خلص حبه لله، فخلصه الله من فتنة عشق الصور. والمشرك قلبه متعلق بغير الله لم يخلص توحيده وحبه لله عز وجل.

ومن أبلغ كيد الشيطان وسخريته بالمفتونين بالصور : أنه يمنى أحدهم أنه إنما يحب ذلك الأمرد، أو تلك المرأة الأجنبية لله تعالى، لا للفاحشة، ويأمره بمواخاته. وهذا من جنس المخادنة، بل هو مخادنة باطنة. كذوات الأخدان اللاتى قال الله تعالى فيهن : *"محصنين غير مسافحين، ولا متخذى أخدان"*.

فيظهرون للناس أن محبتهم تلك الصورة لله تعالى، ويبطنون اتخاذها خدناً، يتلذذون بها فعلاً، أو تقبيلاً، أو تمتعاً بمجرد النظر والمخادنة والمعاشرة، واعتقادهم أن هذا لله، وأنه قربة وطاعة: هو من أعظم الضلال والغى، وتبديل الدين، حيث جعلوا ما كرهه الله سبحانه محبوبا له، وذلك من نوع الشرك، والمحبوب المتخذ من دون الله طاغوت. فإن اعتقاد كون التمتع بالمحبة والنظر والمخادنة وبعض المباشرة لله، وأنه حب فيه: كفر وشرك، كاعتقاد محبى الأوثان فى أوثانهم.

وقد يبلغ الجهل بكثير من هؤلاء إلى أن يعتقد أن التعاون على الفاحشة تعاون على الخير والبر، وأن الجالب محسن إلى العاشق، جدير بالثواب، وأنه ساعٍ فى دوائه وشفائه، وتفريج كرب العشق منه، وأن «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة».

روى البخارى فى صحيحه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«تعس عبدُ الدينار، تعس عبدُ الدرهم، تعس عبدُ القطيفة، تعس

عبدالخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقُش، إن أعطى رضى، وإن مُنع سخط».

فسمى هؤلاء الذين إن أعطوا رضوا، وان منعوا سخطوا عبيدا لهذه الأشياء، لانتهاء محبتهم ورضاهم ورغبتهم اليها.

فإذا شغف الإنسان بمحبة صورة لغير الله، بحيث يرضيه وصوله اليها وظفره بها ويسخطه فوات ذلك كان فيه من التعبد لها بقدر ذلك..

فلو خير هذا الغاوى بين رضاه ورضا الله، لاختار رضا معشوقه على رضا ربه، ولقاء معشوقه أحب اليه من لقاء ربه، وتمنيه لقربه أعظم من تمنيه لقرب ربه، وهربه من سخطه عليه أشد من هربه من سخط ربه. يسخط ربه بمرضاة معشوقه، ويقدم صالح معشوقه وحوائجه على طاعة ربه، فإن فضل من وقته فضلة، وكان عنده قليل من الإيمان، صرف تلك الفضلة فى طاعة ربه، وإن استغرق الزمان حوائج معشوقه ومصالحه صرف زمانه كله فيها، وأهمل أمر الله تعالى، يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس، ويجعل لربه من ماله ـ إن جعل له ـ كل رذيلة وخسيس، فلمعشوقه لبه وقلبه، وهمه ووقته، وخالص ماله، وربه على الفضلة، قد اتخذه وراءه ظهريا، وصار لذكره نسيا، إن قام فى خدمته فى الصلاة فلسانه يناجيه وقلبه يناجي معشوقه، ووجه بدنه إلى القبلة ووجه قلبه إلى المعشوق ينفر من خدمة ربه حتى كأنه واقف فى الصلاة على الجمر من ثقلها عليه وتكلفه لفعلها، فإذا جاءت خدمة المعشوق أقبل عليها بقلبه وبدنه فرحاً بها، ناصحاً له فيها، خفيفة على قلبه لا يستثقلها ولا يستطيلها. ولا ريب أن هؤلاء من الذين اتخذوا من دون الله أنداداً، يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله.

وأصل ذلك كله من خلو القلب من محبة الله تعالى، والإخلاص

له والتشريـــك بينه وبين غيره فى المحبة، ومن محبـــة ما يحب لغير الله، فيقوم ذلك بالقلب، وتعمـــل بموجبه الجـــوارح، وهذا هو حقيقة اتباع الهوى.
وفى الأثر:

«ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوىً متبع».

وقال تعالى: *"أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون"* .

وإذا تأملت حال عشاق الصور المتيمين فيها، وجدت هذه الآية منطبقة عليهم، مخبرة عن حالهم..

وأما محبة الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن، فإنه لا شىء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها، فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاها، وربها ومدبرها ورازقها ومميتها ومحيها، فمحبته نعيم النفوس ، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب، ونور العقول، وقرة العيون، وعمارة الباطن، فليس عند القلوب السليمة والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية أحلى، ولا ألذ ولا أطيب ولا آسر، ولا أنعم من محبته والأنس به، والشوق إلى لقائه والحلاوة التى يجدها المؤمن فى قلبه بذلك فوق كل حلاوة..

وإذا عرف هـــذا، فالعبد فى حـــال معصيته واشـــتغاله عنه بشهوته ولذته تكون تلك اللـــذة والحلاوة الإيمانيـــة قد استترت عنه وتـــوارت، أو نقصت أو ذهبت، فإنهـــا لو كانت موجـــودة كاملة لما قدم عليها لـــذة وشهوة، لا نسبة بينها وبينها بوجه ما بـــل هى أدنى من حبة خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها. أهـ.[1]

---

(١) انتهى .. من كتاب «إغاثة اللهفان».

فى رحاب سورة الناس

قال الله تعالى: *"قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس"*.

سورة (الناس) ثانية المعوذتين، أما المعوذة الأولى: *"قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق"*. فقد اشتملت على التعوذ من شرور ظاهرة ماثلة يحسها الإنسان ويدركها ويلمسها، وهى شرور المخلوقات جميعاً من هوامٍّ، ووحوش، ومن الحيوان والإنسان، ومن السموم والجوائح وكذلك مما تدبره كل نفس كائدة، وتقذف به كل عين حاسدة.

وأما هذه المعوذة : *"قل أعوذ برب الناس"* فإنها قد انفردت بتعليم العباد أن يتعوذوا الله بالله من شرور أخرى خطيرة، شرور باطنة خافية، شرور عظيمة الضرر، بعيدة الأثر، تتسرب الى النفوس فى دقة وحيلة ومهارة، لا يفطن لها، ولا يدركها إلا العالمون. تلك الشرور هى فى وسوسة الشياطين، وفى نزع الأرواح الشريرة، من شياطين الإنس والجن.. *"يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا"*.

وإنما جعلت سورة مخصصة للاستعانة بالله على هذا النوع من الشرور لأن تلك الشرور (وسوسة الشياطين) تذل الإنسانية وتحطم الكرامة البشرية، وماهى إلا أن تخضع لها إرادة المرء ومشيئته، فيصبح الإنسان، وقد استهوته الشياطين فى الأرض حيران، يعيش فى جو من الشكوك والأوهام والخرافات ويتنكب سبل السلام فكان من رحمة الله بعباده، أن جعل لهم من هذه السورة، ومن التعوذ بآياتها منبهاً من الغفلة، وحصناً من الشيطان، وسياجاً من التردى فى هوة الطغيان.

"قل أعوذ برب الناس" قل، يا محمد وعلم أمتك أن يقولوا، قولاً مصحوباً بيقظة الجنان، وحضور القلب، وخشوع الجوارح *"أعوذ"* ألجأ وأستعين وأحتمى من مطاردات الهواجس.

"برب الناس ملك الناس إله الناس"..

هذه صفات ثلاث، وصفت بها الذات العلية، وهى أنه ـ تعالى ـ رب وملك وإله.. ولكل من هذه الصفات معناه ودلالته، وان كانت الذات القدسية واحدة هو الله الذى لا إله إلا هو.

فمعنى (الرب) الذى يربى مربوبه. ورب الناس يربيهم وينميهم بفيض من أنعمه ويقول بعض أكابر الأطباء : «إن الأجهزة التى ينمو فيها الكائن الحى، والمراحل التى يربى ويمر خلالها، حتى يتهيأ للوجود، لتحير الألباب، وتدهش العقول. فهذه العلقة الواحدة التى يقل قطرها عن (عشر المللى) تجتمع فيها ملايين الصفات وملايين الخصائص التى شاء الله أن تكون للمخلوق من هذه العلقة، وان الفروق المتنوعة بين إنسان وإنسان، والتى تملأ مجلدات، قد اختزلت وتركزت فى حجم هذه العلقة، ثم لا تزال تربية الرب تتعهد العلقة حتى تصير مضغة وحتى تتشكل فيها العظام، وحتى تكسى العظام لحماً ، وحتى يصير الكائن خلقاً آخر، بشراً سوياً، ثم يأتى دور تربية أخرى، هى تنمية الجسم، وتكميل المدارك وفى كل دور تكتنف الإنسان رعاية الله، بل فى كل نفس من أنفاسه يتقلب الإنسان فى أنعم الله: *"وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون"*.. هذا معنى الرب.

"ملك الناس" .. أما معنى الملك فهو صاحب السلطان والعظمة بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو الذى يحكم رعاياه ويضبط أعمالهم ويحدد الحدود، ويبين العقوبات ويشرع الشرائع لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

"وملك الناس".. الذى يحمى وجودهم وحقوقهم، ويحل لهم الحلال، ويحرم الحرام، وهو سبحانه ملكهم الحق الذى إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره، فليس للخلق ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم..

"إله النـــاس" .. وأما الإله، فهو الذى أفاض على الكون الوجود، وهو الحق المعبود، تعنو الوجوه لجلاله، وتخشع النفوس لعظمته، والأرض والسموات فى قبضته فهو سبحانه إلههم الحق، ومعبودهم الذى لا إله لهم سواه، ولا معبود لهم غيره. فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه فى ربوبيته ولا فى ملكه أحد فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم، فلا ينبغى أن يجعلوا معه شريكاً فى إلَهيته كما لا شريك معه فى ربوبيته وملكه.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه السورة الكريمة :

وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا، فلا مفزع لنا فى الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغى أن يدعى، ولا يخاف ، ولا يرجى، ولا يحب سواه، ولا يذل لغيره ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولى شأنك هو ربك فلا رب سواه، أو تكون مملوكه وعبده الحق فهو ملك الناس حقاً وكلهم عبيده ومماليكه أو يكون معبودك وإلهك الذى لا تستغنى عنه طرفة عين بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك، وهو الإله الحق إله الناس الذى لا إله لهم سواه. فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جد يرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم، ومتولى أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلجأ العبد عند النوازل

ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه.

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة، وأشدهم ضرراً وأبلغهم كيداً.

والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب، وأخر الإلهية لخصوصها لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده، واتخذه دون غيره إلهاً.

فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه وان كان فى الحقيقة لا إله له سواه، ولكن ترك إله الحق واتخذ إلهاً غيره. ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه.

فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها. فهو الرب الحق، الملك الحق، الإله الحق ، خلقهم بربوبيته، وقهرهم بملكه، واستعبدهم بإلاهيته.

فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التى تضمنتها هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق: *"رب الناس ملك الناس إله الناس"* .

وقد اشتملت هذه الألفاظ الثلاثة على جميع قواعد الإيمان وتضمنت معانى أسمائه الحسنى.. أما تضمنها لمعانى أسمائه الحسنى، فإن الرب هو القادر الخالق البارىء المصور الحى القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطى المانع الضار النافع المقدم المؤخر الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء ويسعد من يشاء ويشقى من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء.... إلى غير ذلك من معانى ربوبيته التى له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك فهو الآمر الناهى، المعز المذل، الذى يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء .. وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء

الحسنى ، كالعزيز الجبار المتكبر، الحكم العدل، الخافض، الرافع، العظيم الجليل الحسيب المجيد الوالى المتعالى، مالك الملك، المقسط الجامع... إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فيدخل فى هذا الإسم جميع الأسماء الحسنى. ولهذا كان القول الصحيح ان الله أصله الإله.. وان اسم الله تعالى هو الجامع لمعانى الأسماء الحسنى والصفات العلى. فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معانى أسمائه الحسنى، فكان المستعيذ بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه.

وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر، وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وأن باديه إلى الخافى يسير أ.هـ.

قوله تعالى : ***"من شر الوسواس الخناس"***..

الوسواس (بكسر الواو) مصدر لوسوس يوسوس، وأصل الوسوسة الصوت أو الهمس الخفى، وأطلق الوسواس فى هذه السورة على إبليس ذاته، لأنه لما دأب بوسوسته، ونزغه، على الشر، وإهاجة الفساد ، صارت ذاته وكأنما هى وسوسة ليس غير، كما تقول للرجل يدأب على الفساد (انه عمل غير صالح) فعبر بالمعنى عن الذات.

والخناس كثير الخنوس، من خنس يخنس، إذا انقبض، وتراجع وتقهقر، وانما سمى (إبليس) خناساً لأنه كثيراً ما ينقبض وينقطع عن وسوسته، ويتوارى أمام الحق، إذا ما سلط الإنسان عليه الاستعاذة بالله، وأحضر مع وسوسته الخوف من الله.

قال تعالى : *"فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا"* .

قوله تعالى : ***"الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس"*** .

والتعبير بالفعل المضارع *"الذى يوسوس"* لإثبات ما تفيده صيغة هذا

الفعل من التجدد والاستمرار والحدوث وأنها إشارة بليغة، تدل على تجدد الوسوسة واستمرارها، وأن إبليس لا يكف عنها، ولا يقف دونها إلا ريثما يذكر الإنسان ربه، فإذا ماعرته غفلة عن ذكر الله، وثبت عليه إبليس واقتحم نوافذ فكره ومسالك رأيه.

قال قتادة : الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب فى صدر الناس، فإذا ذكر العبد ربه خنس. (أى اختفى) وهرب، فإن ذكر الله هو مقمعته التى يقمع بها، كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التى تردعه من سياط وحديد وعصى ونحوها. فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التى تؤذى من يضرب بها، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مضنى مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفى أثر عن بعض السلف أن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى الرجل بعيره فى السفر، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة، فشيطانه معه فى عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذى هو معه فى راحة ودعة، ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً.

فمن لم يعذب شيطانه فى هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته، عذبه شيطانه فى الآخرة بعذاب النار. فلابد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه.

فقوله تعالى: *"الذى يوسوس فى صدور الناس"* صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولاً ثم ذكر محلها ثانياً وانها فى صدور الناس.

وقد جعل الله للشيطان دخولاً فى جوف العبد ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجرى منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات.

وفى الصحيحين من حديث الزهرى عن على بن حسين عن صفية بنت حيى قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً

فحدثته ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي».. فقالا سبحان الله يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلبيكما شيئاً».

وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط فإذا قضى أقبل، فإذا ثوّب بها أدبر، فإذا قضى أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول أذكر كذا، أذكر كذا، حتى لا يدري أثلاثاً صلى أم أربعاً، فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً سجد سجدتي السهو»..

ومن وسوسته ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته».

وفي الصحيح ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به، قال الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة.

ومن وسوسته أيضاً أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه. قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال: "*إني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره*".

وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة من شره جميعه، فإن قوله: "*من شر الوسواس*"

يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً وهى الوسوسة التى هى مبادىء الإرادة، فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه فتصير شهوة، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له فى خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمنى ويشهى وينسى علمه بضررها ويطوى عنه سوء عاقبتها فيحول بينه وبين مطالعته فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة فيشتد الحرص عليها من القلب فيبعث الجنود فى الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً، فإن فتروا حركهم وإن ونوا أزعجهم، كما قال تعالى: *"ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً"* أى تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة، قد رضى لنفسه بالقيادة لفجرة بنى آدم، وهو الذى استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم، فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواداً لكل من عصى الله..

كما قال بعضهم :

عجبت من إبليس فى تيهه وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم فى سجدة وصار قوادا لذريته

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً. فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف، وكذلك يبيت فى البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت فى بيوتهم بغير أمرهم، فيدخل سارقاً ويخرج مغيراً، ويدل على عوراتهم، فيأمر العبد

بالمعصية، ثم يلقى فى قلوب الناس يقظة ومناماً أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه فى قلبه ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم، فأوقعه فى الذنب ثم فضحه به فالرب تعالى يستره، والشيطان يجهد فى كشف ستره وفضيحته، فيغتر العبد ويقول هذا ذنب لم يره إلا الله ولم يشعر بأن عدوه ساعٍ فى إذاعته وفضيحته. وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة.

ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقداً تمنعه من اليقظة كما فى صحيح البخارى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإ صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان».

ومن شره أنه يبول فى أذن العبد حتى ينام إلى الصباح، كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح قال: «ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه، أو قال فى أذنه».. رواه البخارى.

ومن شره أنه قعد لإبن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع فإن عمله وفرغ منه قيض له مايبطل أثره ويرده على حافرته. ويكفى من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبنى آدم صراطه المستقيم وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم... ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ فى الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة، ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة للنار من كل

ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة فى إبطال دعوة الله من الأرض، وقصد أن تكون الدعوة له، وأن يعبد من دون الله، فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض.

ويكفى من شره أن تصدى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق فى النار، فرد الله كيده عليه، وجعل النار على خليله برداً وسلاماً.

وتصدى للمسيح صلى الله عليه وسلم حتى أراد اليهود قتله وصلبه فرد الله كيده، وصان المسيح ورفعه اليه.

وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا. واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم فى الأرض، ودعوى أنه ربهم الأعلى..

ـ وتصدى للنبى صلى الله عليه وسلم وظاهر الكفار على قتله بجهده والله تعالى يكبته ويرده خاسئاً ..

وتفلت على النبي صلى الله عليه وسلم بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو فى الصلاة فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «ألعنك بلعنة الله».

وأعان اليهود على سحرهم للنبى صلى الله عليه وسلم.

فإذا كان هذا شأنه وهمته فى الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته.

عقبات الشيطان الست

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

«ولا يمكن حصر أجناس شره فضلاً عن آحادها، إذ كل شر فى العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره فى ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه

واحداً منها أو أكثر.

الشـر الأول : شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تبعه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنوده وعسكره، واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه.. فإن يئس منه فى ذلك وكان ممن سبق له الإسلام فى بطن أمه، نقله إلى المرتبة الثانية من الشر وهى البدعة، وهى أحب إليه من الفسوق والمعاصى، لأن ضررها فى نفس الدين، وهو ضرر متعد، وهى ذنب لا يتاب منه، وهى مخالفة لدعوة الرسل، ودعوة إلى خلاف ما جاءوا به، وهى باب الكفر والشرك. فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقى أيضاً نائبه وداعياً من دعاته.

فإن أعجزه من هذه المرتبة، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر، وهى الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً، فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه فى الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها، وإذاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به.

وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر لله وتاب إليه قبل الله توبته وبدّل سيئاته حسنات، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين، وتتبع لعورتهم، وقصد لفضيحتهم ، والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ودساس النفوس.

فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة، وهى الصغائر التى إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض» وذكر حديثاً معناه ان كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا نارا عظيمة فطبخوا واشتووا. ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه.

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظاً لوقته شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب، نقله إلى المرتبة الخامسة، وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له، إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه. وقل من يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لايكاد يقول ان هذا الداعى من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول الداعى من الله، وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين بابا وأجل وأفضل، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه فى قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها اليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه فى الأمة وخلفائه فى الأرض. وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر بقلوبهم والله يمن بفضله على من يشاء من عباده .

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الخمس، وأعيى عليه، سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه، وقصد إخماله واطفاءه ليشوش عليه قلبه، ويشغل بحربه فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه فى تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا ينى، فحينئذ يلبس المؤمن لامة الحرب[١] ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أسر أو أصيب، فلا يزال فى جهاد حتى يلقى الله.

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته، واجعله ميزانك تزن به الناس، وتزن به الأعمال، فإنه يطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان . أ.هـ .

قوله تعالى : "*من الجنة والناس*" ..

بيان للذى يوسوس، وانهم نوعان: إنس وجن ، فالجنى يوسوس فى صدور الناس، والإنسى أيضاً يوسوس إلى الإنسى. فالموسوس نوعان إنس وجن، فإن الوسوسة هى الإلقاء الخفى فى القلب، وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسى ووسوسته إنما هى بواسطة الأذن، والجنى لا يحتاج إلى تلك الواسطة، لأنه يدخل فى ابن آدم ويجرى منه مجرى الدم. على أن الجنى قد يتمثل له ويوسوس إليه فى أذنه كالإنسى كما فى البخارى عن عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال: «ان الملائكة تحدث فى العنان ـ والعنان الغمام ـ بالأمر يكون فى الأرض، فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم».. فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن.

ونظير اشتراكهما فى هذه الوسوسة اشتراكهما فى الوحى الشيطانى .. قال تعالى: "*وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى*

(١) لباس الحرب .

بعض زخرف القول غروراً" .

فالشيطان يوحى إلى الإنسى باطله، ويوحيه الإنسى إلى إنسى مثله فشياطين الإنس والجن يشتركان فى الوحى الشيطانى، ويشتركان فى الوسوسة.. وتدل الآية الكريمة على الاستعاذة من شر نوعى الشياطين، شياطين الإنس والجن .

القلوب ثلاثة

قال ابن القيم ـ رحمه الله[1] ـ :

«القلوب ثلاثة : قلب خالٍ من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً وتحكم فيه بما يريد وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثانى : قلب قد استنار بنور الإيمان، وأوقد فيه مصباحه لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع، فالحرب دول وسجال. وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر. ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث : قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حجب الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره فى صدره إشراق، ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به، فهو كالسماء التى حرست بالنجوم فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق. وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء، والسماء

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب

متعبد الملائكة ومستقر الوحى وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان وفيه أنوارها، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو فلا ينال منه شيئاً إلا خطفة، وقد مثل ذلك بمثال حسن وهو ثلاثة بيوت : بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره. وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره وليس جواهر الملك وذخائره. وبيت خال صفر لا شيء فيه. فجاء اللص يسرق من أحد البيوت فمن أيها يسرق ؟ فإن قلت من البيت الخالى كان محالاً لأن البيت الخالى ليس فيه شيء يسرق، ولهذا قيل لإبن عباس رضى الله عنهما: إن اليهود تزعم أنها لا توسوس فى صلاتها، فقال رضى الله عنه : وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب ؟ وإن قلت : يسرق من بيت الملك كان ذلك كالمستحيل الممتنع، فإن عليه من الحرس مالا يستطيع اللص من الدنو منه، كيف وحارسه الملك نفسه ؟ وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله ؟ فلم يبق للص إلا البيت الثالث فهو الذى يشن عليه الغارات. فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل ولينزله على القلوب فإنها على منواله. فقلب خلا من الخير كله وهو قلب الكافر والمنافق فذلك بيت الشيطان قد أحرزه لنفسه واستوطنه واتخذه سكناً ومستقراً، فأى شيء يسرق منه وفيه خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه. وقلب قد امتلأ من جلال الله عز وجل وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه، فأى شيطان يجترىء على هذا القلب؟ وإن أراد سرقة شيء منه فماذا يسرق؟ وغايته أن يظفر فى الأحايين منه بخطفة ونهب يحصل له على غرة من العبد وغفلة لابد له منها، إذ هو بشر وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع ..

وقلب فيه توحيد الله ومعرفته ومحبته والإيمان به والتصديق بوعده ووعيده وفيه شهوات النفس وأخلاقها ودواعى الهوى والطبع وقلب بين هذين

الداعيين: فمرة يميل بقلبه داعى الإيمان والمعرفة والمحبة لله تعالى وإرادته وحده، ومرة يميل بقلبه داعى الشيطان والهوى والطباع. فهذا القلب للشيطان فيه مطمع، وله منه منازلات ووقائع، ويعطى الله النصر من يشاء.. *"وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم"*. وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه، فيدخل اليه الشيطان فيجد سلاحه عنده فيأخذه ويقاتله به، فإن أسلحته هى الشهوات والشبهات والخيالات والأمانى الكاذبة وهى فى القلب، فيدخل الشيطان فيجدها عتيدة فيأخذها ويصول بها على القلب.

فإن كان عند العبد عُدة عتيدة من الإيمان تقاوم تلك العدة وتزيد عليها انتصف من الشيطان، وإلا فالدولة لعدوه عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله. فإذا أذن العبد لعدوه وفتح له باب بيته وأدخله عليه ومكنه من السلاح يقاتله به فهو الملوم . أ هـ .

رحمة الله بعبده

خلق الله سبحانه وتعالى الآدمى واختاره من بين سائر البرية، وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان والتوحيد والإخلاص والمحبة والحياء والتعظيم والمراقبة، وجعل ثوابه إذا قدم عليه أكمل الثواب وأفضله، وهو النظر إلى وجهه والفوز برضوانه ومجاورته فى جنته، وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه، فهو يدخل عليه من الأبواب التى هى من نفسه وطبعه فتميل نفسه معه، لأنه يدخل عليها بما تحب، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد : ثلاثة مسلطون آمرون، فيبعثون الجوارح فى قضاء وطرهم، والجوارح آلة منقادة فلا يمكنها إلا الانبعاث، فهذا

شأن هذه الثلاثة وشأن الجوارح، فلا تزال الجوارح فى طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا. هذا مقتضى حال العبد، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر وأمده بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذى يريد هلاكه، فأرسل إليه رسوله وأنزل عليه كتابه وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان، فإذا أمره الشيطان بأمر أمره الملك بأمر ربه وبين له ما فى طاعة العدو من الهلاك، فهذا يلم به مرة وهذا مرة، والمنصور من نصره الله عز وجل والمحفوظ من حفظه الله تعالى، وجعل له مقابل نفسه الأمارة بالسوء نفسا المطمئنة فإذا أمرته الأمارة بالسوء، بالسوء نهته عن النفس المطمئنة، وإذا نهته الأمارة عن الخير أمرته به النفس المطمئنة. فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة، وهو الغالب عليه منهما، وربما انقهرت إحداهما بالكلية قهراً لا تقوم معه أبداً. وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نوراً وبصيرة وعقلاً يرده عن الذهاب مع الهوى، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر، فإن المهالك والمتالف بين يديك وأنت صيد الحرامية وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل. فهو يطيع الناصح مرة فيبين له رشده ونصحه، ويمشى خلف دليل الهوى مرة فيقطع عليه الطريق ويؤخذ ماله ويسلب ثيابه فيقول: ترى من أين أتيت ؟ والعجب انه يعلم من أين أتى، ويعرف الطريق التى قطعت عليه وأخذ فيها ويأبى إلا سلوكها، لأن دليلها قد تمكن منه وتحكم فيه وقوى عليه، ولو أضعفه بالمخالفة له وزجره إذا دعاه ومحاربته إذا أراد أخذه لم يتمكن منه، ولكن هو مكنه من نفسه وهو أعطاه يده، فهو بمنزلة الرجل يضع يده فى يد عدوه فيباشره ثم يسومه سوء العذاب، فهو يستغيث فلا يغاث، فهكذا يستأسر للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة ثم يطلب الخلاص فيعجز عنه، فلما أن بلى العبد بما بلى به أعين بالعساكر والعدد والحصون، وقيل : قاتل عدوك وجاهده، فهذه الجنود خذ منها ما شئت

وهذه الحصون تحصن بأى حصن شئت منها وقد أرسل اليك رسله فنقلوك إلى داره واسترحت من هذا الجهاد وفرق بينك وبين عدوك وأطلقت فى دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت وسجن عدوك فى أصعب الحبوس وأنت تراه. فالسجن الذى كان يريد أن يودعك فيه قد ادخل فيه وأغلقت عليه أبوابه وأيس من الروح والفرج، وأنت فيما اشتهت نفسك، وقرت عينك، جزاء على صبرك فى تلك المدة اليسيرة ولزومك الثغر للرباط، وما كانت إلا ساعة ثم انقضت وكأن الشدة لم تكن.

فإن ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه فليتدبر قوله تعالى: "*كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار*"..

وقوله عز وجل : "*كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها*".

وقوله عز وجل : "*قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون*".

وقوله عز وجل : "*يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً، يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا، نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً*".

وخطب النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه يوماً، فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال وذلك عند الغروب قال صلى الله عليه وسلم : «أنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه».

فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذا الحديث، وليعلم أى شىء حصل له من هذا الوقت الذى قد بقى من الدنيا بأسرها، ليعلم أنه فى غرور واضغاث أحلام، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوى شيئاً، ولو طلب الله تعالى والدار الآخرة لأعطاه ذلك الحظ هنيئاً موفوراً وأكمل منه، كما فى بعض الآثار: ابن آدم، بع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعاً، ولا تبع الآخرة

بالدنيا تخسرهما جميعاً. وقال بعض السلف : ابن آدم : أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج .

وكان عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه يقول فى خطبته : أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى. وإن لكم معاداً يجمعكم الله عز وجل فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وشقى عبد أخرجه الله عز وجل من رحمته التى وسعت كل شىء، وجنته التى عرضها السموات والأرض. وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله تعالى واتقى، وباع قليلاً بكثير، وفانيا بباق، وشقاوة بسعادة.. ألا ترون انكم فى أصلاب الهالكين، وسيخلفه بعدكم الباقون؟.. ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه، وانقطع أمله فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب وواجه الحساب؟..(١)

(١) مستناد من كتاب «الوابل الصيب».

التحصن من الشيطان بذكر الله تعالى

قال تعالى : *"يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً"* .. وقال جل ذكره :

"وأقم الصلاة لذكرى" ..

وقال سبحانه : *"فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون"* .

وقال سبحانه: *"ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين"* .

وقال عز وجل : *"وإما ينزعنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم، ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون"* .

يخبر تعالى عن عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر أنهم: *"إذا مسهم طائف من الشيطان"* أي إذا أصابهم الشيطان بوسوسته وحام حولهم بهواجسه (تذكروا) أي تذكروا عقاب الله وجلاله: *"فإذا هم مبصرون"* أي يبصرون الحق بنور البصيرة ويتخلصون من وساوس الشيطان. كأنهم لما استيقظوا ذهبت سحابة الغفلة فأشرقت شمس البصيرة.

فبالذكر يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان. قال بعض السلف : إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين فيقولون : ما لهذا ؟.. فيقال : قد مسه الإنسي.

فخير سبيل للاحتماء من الشيطان وجنده هو الإلتجاء إلى الله تعالى

والاستعاذة به من الشيطان، فإنه عليه قادر، فإذا أجار عبده فأنى يخلص الشيطان إليه..

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين وحضورهم. قال تعالى: "*وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون*".

وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم فالله يأمرنا بالاستعاذة به من العدو الشيطانى لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم .

يقول ابن كثير فى تفسيره: «والاستعاذة هى الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر، ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أى استجير بجناب الله من الشيطان الرجيم لا يضرنى فى دينى ودنياى أو يصدنى عن فعل ما أمرت به، أو يحثنى على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله القوى القادر، ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه.

وقد كان صلى الله عليه وسلم، يكثر من الاستعاذة بربه من الشيطان الرجيم فى أحوال كثيرة منها :

ـ (الاستعاذة عند قراءة القرآن الكريم):

قال تعالى : "*فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم*".

وأخرج ابن ماجه عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه».. قال همزه الموته ـ وهى الخنق ـ ونفخه الكبر ونفثه الشعر.

وقال الإمام أحمد عن أبى أمامة الباهلى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة كبر ثلاثاً ثم قال: «لا إله إلا الله ثلاث مرات وسبحان الله وبحمده ثلاث مرات ثم قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»..

ـ (الاستعاذة عند دخول الخلاء) :

ففى سند أحمد وسنن أبى داود بإسناد صحيح عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن هذه الحشوش محتضرة، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث.

ـ (الاستعاذة عند الجماع) :

وحثنا صلى الله عليه وسلم على الاستعاذة حين يأتى الرجل أهله بأن يقول: «بسم الله اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه لو قضى بينهما ولد من ذلك لم يضره الشيطان أبداً». (متفق عليه).

ـ (الاستعاذة عند الغضب) :

وأخرج الحافظ أبويعلى فى سنده عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال: تلاحى رجلان عند النبى صلى الله عليه وسلم فتمزع أنف أحدهما غضباً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنى لأعلم شيئاً لو قاله لذهب عنه مايجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

** وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أحد أصحابه أن يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة ، لا إله إلا أنت، رب كل شىء ومليكه أعوذ بك من شر نفسى، ومن شر الشيطان وشركه، وأن اقترف على نفسى سوءاً، أو أجره إلى مسلم».. (رواه الترمذى بإسناد صحيح).

ـ (التعوذ بالله من الشيطان عند سماع نهاق الحمار) :

فقد أخرج الطبرانى فى معجم الكبير بإسناد صحيح : قال صلى الله عليه

وسلم: «إذا نهق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم».

ـ (تعويذ الأبناء والأهل) :

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة، ثم يقول: هكذا كان أبى ابراهيم صلى الله عليه وسلم يعوذ اسماعيل واسحق».. (أخرجاه فى الصحيحين).

**** خير ما يتعوذ به المتعوذون ..**

وخير ما يتعوذ به المتعوذون سورتا الفلق والناس، فعن عقبة ابن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين: *(قل أعوذ برب الفلق)* و *(قل أعوذ برب الناس..)* » (رواه النسائى).

وروى مسلم فى صحيحه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط، أعوذ برب الفلق وأعوذ برب الناس».

وفى لفظ آخر: «ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون ؟ قلت: بلى قال: (قل أعوذ برب الفلق) ، و(قل أعوذ برب الناس).

وفى الصحيحين عن عائشة .. أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا آوى إلى فراشه نفث فى كفيه بـ (قل هو الله أحد) والمعوذتين جميعاً ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده . قالت عائشة: فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به.

شبهة والرد عليها[1]

يقول بعض الناس إننا نستعيذ بالله من الشيطان ومع ذلك نحس بالشيطان يوسوس لنا ويحرضنا على الشر ويشغلنا فى صلاتنا..

---

(١) مستفاد من كتاب عالم الجن والشياطين لعمر سليمان الأشقر .

والجواب : ان الاستعاذة كالسيف فى يد المقاتل، فإن كانت يده قوية أصاب من عدوه مقتلاً، وإلا فإنه قد لا يؤثر فيه، ولو كان السيف صقيلاً حديداً.

وكذلك الاستعاذة إذا كانت من تقى ورع كانت ناراً تحرق الشيطان وإذا كانت من مخلط ضعيف الإيمان فلا تؤثر فى العدو تأثيراً قوياً. قال أبوالفرج ابن الجوزى ـ رحمه الله ـ : «وأعلم ان مثل ابليس مع المتقى والمخلط كرجل جالس بين يدى طعام ولحم فمر به كلب، فقال له إخسأ، فذهب. فمر بآخر بين يديه طعام ولحم فكلما أخسأه (طرده) لم يبرح. فالأول مثل المتقى يمر به الشيطان فيكفيه فى طرده الذكر. والثانى مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه نعوذ بالله من الشيطان»..

فعلى المسلم الذى يريد النجاة من الشيطان وأحابيله أن يشتغل بتقوية إيمانه والاحتماء بالله ربه والالتجاء إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الاشتغال بذكر الله تعالى

ذكر الله من أعظم ما ينجى العبد من الشيطان. فقد روى أحمد وأبوداود والترمذى وصححه عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها.. فذكر التوحيد، والصلاة، والصيام، والصدقة، ثم قال وآمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله».

قال ابن القيم : فلو لم يكن فى الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقا

بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى وأن لا يزال لسانه لهجاً بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه وإذا ذكر الله انخنس عدو الله وتصاغر وانقمع..

ـ وفى الترمذى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قال ـ يعنى إذا خرج من بيته ـ بسم الله ، توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله.. يقال له: كفيت وهديت ووقيت وتنحى الشيطان، فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى؟».. (رواه أبوداود والترمذى وحسنه).

ـ وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك».

فهذا حرز عظيم النفع، جليل الفائدة، يسير سهل على من يسره الله عليه.

وقال أبوخلاد المصرى : من دخل فى الإسلام دخل فى حصن، ومن دخل المسجد فقد دخل فى حصنين، ومن جلس فى حلقة يذكر الله عز وجل فيها فقد دخل فى بيته حصوناً.

ـ وقد روى الحافظ أبوموسى المدينى فى كتابه عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إذا وضع العبد جنبه على فراشه فقال بسم الله وقرأ فاتحة الكتاب أمن من شر الجن والإنس ومن كل شىء».

ـ وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة».

ـ وعن أبى مسعود البدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه» (متفق عليه)..
قيل: كفتاه المكروه تلك الليلة، وقيل: كفتاه من قيام الليل.

ـ وفى صحيح البخارى عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: «ولانى رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة رمضان أن احتفظ بها، فآتانى آت فجعل يحشو من الطعام، فأخذته فقال: دعنى فإنى لا أعود، فذكر الحديث وقال: فقال له فى الثالثة : أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها إلى آخرها فإنه لايزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلى سبيله فأصبح فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بقوله فقال: «صدقك وهو كذوب».

ـ وذكر الحافظ أبوموسى عن الحسن بن على فقال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين آية أن يعصمه الله تعالى من كل شيطان ظالم، ومن كل شيطان مريد، ومن كل سبع ضار، ومن كل لص عاد: آية الكرسى، وثلاث آيات من سورة الأعراف: *"إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض"*. وعشراً من أول الصافات وثلاث آيات من الرحمن *"يا معشر الجن والإنس"* وخاتمة سورة الحشر: *"لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً"*.. الآيات..

وقد ثبت فى الصحيح ان الشيطان يهرب من الآذان فعن أبى هريرة رضى الله عنه انه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان إذا نودى بالصلاة ولى وله حصاص» وفى رواية: «إذا سمع النداء ولى وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين».

ـ وذكر الحافظ أبوموسى من حديث أبى رجاء عن أبى بكر الصديق قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استكثروا من لا إله إلا الله والاستغفار، فإن الشيطان قال: قد أهلكتهم بالذنوب وأهلكونى بقول لا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون».

- وعن خولة بنت حكيم رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من نزل منزلاً ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شىء حتى يرتحل من منزله» (رواه مسلم).

قال الإمام الخطابى المراد بكلمات الله التامات القرآن الكريم.

- وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد إذا نام بكل عقدة يضرب عليك ليلاً طويلاً فإذا استيقظ فذكر الله، انحلت عقدة وإذا توضأ، انحلت عنه عقدتان. فإذا صلى انحلت العقد فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان».

- وفى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كان جنح الليل – أو أمسيتم – فكفوا صبيانكم. فإن الشيطان ينتشر حينئذ. فإذا ذهب ساعة من الليل فخلوهم، وأغلقوا الأبواب. واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً وأوكوا قربكم واذكروا اسم الله. وخمروا آنيتكم واذكروا اسم الله. ولو تعرضوا عليها شيئاً. وأطفئوا مصابيحكم».

ففى هذا الحديث جمل من أنواع الخير والآداب الجامعة لمصالح الآخرة والدنيا. فأمر صلى الله عليه وسلم بهذه الآداب التى هى سبب للسلامة من إيذاء الشيطان وجعل الله عز وجل هذه الأسباب أسباباً للسلامة من إيذائه فلا يقدر على كشف إناء ولا حل سقاء ولا فتح باب ولا إيذاء صبى وغيره، إذا

وجدت هذه الأسباب.. وجُنح الليل، (بضم الجيم وكسرها) ظلامه. ومعنى (فكفوا صبيانكم) أي: امنعوهم من الخروج ذلك الوقت.

فلا تنس كل هذا أخي المؤمن وكن منفذاً له حتى تكون من الذين تحدث الله سبحانه وتعالى عنهم في قوله تعالى: *"الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب"*.

ولا تنس أخي المؤمن.. بعد هذا الهدى النبوى، الذى أرجو أن تكون قد انتفعت به من أن تكون من الذاكرين الله تعالى كثيراً في كل أحوالك وشئونك .

خـاتمـة

بعدما تقدم من الحديث عن عالم الجن والشياطين لا يسعنا إلا أن نتوجه إلى البارىء تبارك اسمه ندعوه قائلين أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون.. كما نود أن ننبه إلى أن كيد الشيطان كان ضعيفا ومن ثم فإن الله تعالى بين دواء هذا الداء فقال: "*وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم*" وقال فى موضع آخر: "*وقل رب أعوذ بك من همزات الشيطان وأعوذ بك رب أن يحضرون*" .. فالتزم يا أخى بهذا الدواء القرآنى وهل حلَّت الشياطين فى بيوتنا إلا عندما خلت من ذكر الله تعالى وكثرت فيها أدوات اللهو والصد عن ذكر الله وإقام الصلوات إن على كل مسلم أن يجعل بيته من البيوت التى قال الله فيها: "*فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والأصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب*" .. صدق الله العظيم .

المؤلـف

الشيخ عبدالحميد كشك

الفهـــــرس

كتب صدرت للمؤلف

- قصة أيامى
- بناء الأسرة المسلمة
- كلمتنا فى الرد على أولاد حارتنا
- أيها المسلمون أفيقوا
- الجانب الخلقى فى العبادات
- روضة الروح
- مابعد الموت
- دروس وعبر
- دور المسجد فى المجتمع المعاصر
- تفسير سورة الحاقة
- أنبياء الله
- أحاديث الجمعة
- بر الوالدين
- أسماء الله الحسنى
- عالم الملائكة

- سلسلة فتاوى الشيخ كشك
- المستكبرون والمستضعفون
- الحلال والحرام
- ٥٠٠ سؤال وجواب فى فقه المرأة المسلمة
- التقوى
- التوبة
- عالم الجن والشياطين

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٢/٣١٤٢

الترقيم الدولى ٩٧٧-٢٢٠-٠٤٠-٦

دار النصر للطباعة الإسلامية

٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة

الرقم البريدى ــ ١١٢٣١